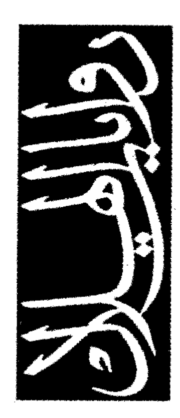

روايات الهلال
ألبير قصيري
بشر نسيهم الله
مدونة ابو عبدو
ترجمة:
لطفي السيد

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش



مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد
عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة.
القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
. تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج.م.ع.
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٣ Telex
فاكس: FAX: ٢٦٢٥٤٦٩

البريد الالكتروني: helalmag@yahoo.com
بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة –
لبنان ٨٠٠٠ ليرة –
السعودية ١٢ ريالا–
البحرين ١,٢ دينار–
قطر ١٢ ريالا –
الإمارات ١٢ درهما –
اليمن ٥٠٠ ريال –
فلسطين ٢ دولار

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً – أوربا وآسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً – أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً – باقى دول العالم ٧٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول / يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين

باكين

الكتاب: بشر نسيهم الله

المؤلف: ألبير قصيرى

المترجم: لطفى السيد

التصنيف: رواية

الناشر: روايات الهلال - دار الهلال

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢٢٠٧٤

الترقيم الدولى: 5 - 1729 - 07- 977 - 978

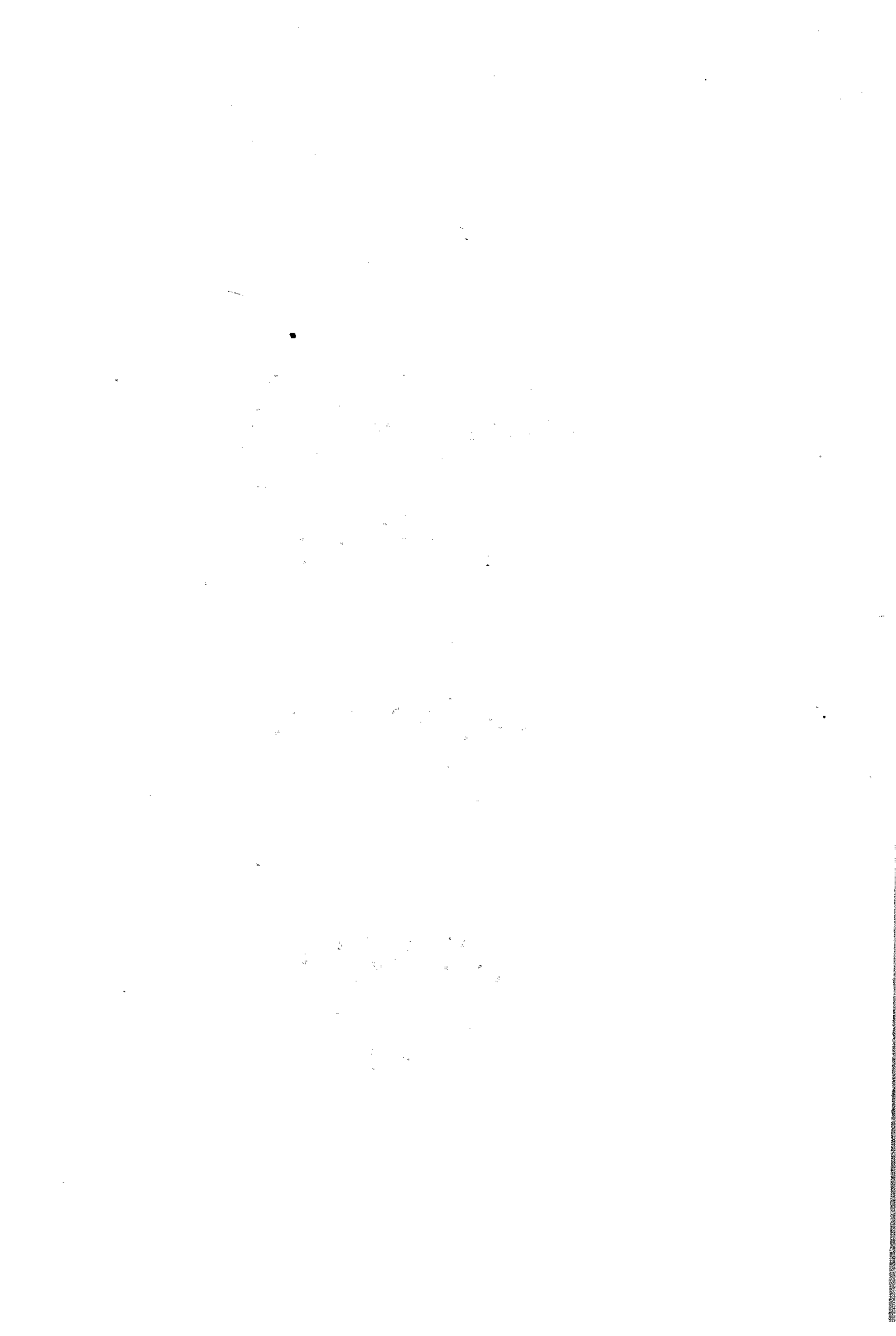
بشر نسيهم الله

ألبير قصيرى

ترجمة : لطفى السيد

روايات الهلال

٢٠١٥



ولد ألبير قصيرى فى ٣ نوفمبر ١٩١٣ بحى الفجالة بالقاهرة لأبوين مصريين أصولهما من الشوام، وكانت عائلته من الميسورين حيث إن والده كان من أصحاب الأملاك.

تلقى ألبير قصيرى تعليمه فى مدارس دينيَة مسيحية قبل أن ينتقل إلى مدرسة الجيزويت الفرنسية، حيث قرأ لبلزاك وموليير وفيكتور هوجو وفولتير وغيرهم من كبار الكتّاب الفرنسيين الكلاسيكيين.

كانت فلسفة ألبير قصيرى فى حياته هى فلسفة الكسل، لم يعمل فى حياته وكان يقول: إنه لم ير أحداً من أفراد عائلته يعمل .الجد والأب والإخوة فى مصر كانوا يعيشون على عائدات الأراضى والأملاك، أما هو فقد عاش من عائدات كتبه وكتابة السيناريوهات، وكان يقول (حين نملك فى الشرق ما يكفى لنعيش منهَ لا نعود نعمل بخلاف أوروبا التى حين نملك ملايين نستمر فى العمل لنكسب أكثر).

عمل فى البحرية التجارية ما بين عامى ١٩٣٩ و١٩٤٣ مما أتاح له زيارة العديد من الأماكن منها أمريكا وإنجلترا، زار فرنسا للمرة الأولى مرة عندما كان فى السابعة عشرة قبل أن يقرر أن يستقر فيها فى عام ١٩٤٥م وكان حينها فى الثانية والثلاثين.

عاش ألبير قصيرى طوال حياته فى غرفة رقم ٥٨ فى فندق لا لويزيان بشارع السين بحى سان جيرمان دو بريه منذ عام ١٩٤٥م وحتى وفاته، واختار العيش فى غرفة فندق لأنه كان يكره التملك حيث كان يقول (الملكية هى التى تجعل منك عبدا).

تزوج ألبير قصيرى من ممثلة مسرحية فرنسية ولكن لم يدم هذا الزواج طويلا وعاش بقية حياته أعزب وحين كان يسأل عن السعادة كان يقول: أن أكون بمفردى.

تعرف ألبير قصيرى فى فرنسا على ألبير كامي وجان بول سارتر ولورانس داريل وهنرى ميللر الذين أصبحوا فيما بعد رفقته وصحبته اليومية طوال ١٥ عاما فى مقهى كافيه دو فلور.

أصيب فى عام ١٩٩٨م بسرطان فى الحنجرة حرمه من حباله الصوتية بعد عملية أجروها لاستئصاله وفقد القدرة على النطق، وكان يجيب عن أسئلة الصحفيين كتابة.

لم يطلب ألبير قصيرى الحصول على الجنسية الفرنسية على الإطلاق وكان يؤكد : لست فى حاجة لأن أعيش فى مصر ولا لأن أكتب بالعربية، فإن مصر فى داخلى وهى ذاكرتي.

إنه ألبير قصيري، الكاتب الفرانكوفوني ذو الأصل المصرى والملقب بفولتير النيل وأوسكار وايلد الفرنسي و باستير كيتون العربي، والمتوفى فى عام ٢٠٠٨عن عمر يناهز ٩٥عاماً أمضاها فى باريس فى غرفة بفندق شغلها،على ما يبدو، على مدى عقود. عندما أصيب بالحبسة، فإنه لم يعد يستطيع التواصل إلا من خلال رسائله المخنوقة ... أعيد طبع أعماله الكاملة فى نهاية عام ٢٠٠٥ فى دار نشرجويل لوسفيلد ؛ وهى عبارة عن مجموعة قصصية وسبع روايات. صوت نادر، استطاع أن يغذى فن الترقب، ولكن دون أن يتخلص من التلاحم العميق. فى الواقع، بين المجموعة القصصية" بشر نسيهم الله" الصادرة (١٩٤١) ونوفيلا "ألوان العار" الصادرة (١٩٩٥)، يبدو أن قليلا من الأشياء كان قد تغير: أن الوغد لا يزال موجوداً بالفعل فى مكانه، أى فى السلطة. إنه على الرغم من المزاعم التقدمية عن التقدم، يبقى الإنسان ذئبا حيال الإنسان.

إنه كاتب تحررى من أعماق وجدانه والذى اضطلع بالتكاليف التى سببها رفضه الحشوية كمنطق للسوق، وحتى أكثر من ذلك، كضرورة للعمل، بقي قصيرى على مسافة حتى يطور كبهلوان على سلك الكتابة المشوق

موازنا بين الثورة والزهد. ما هى الشخصيات التى يصورها؟ إنها بشكل أساسى "أفاتارات" (*) أناه الخاصة، التى يشكل ملامحها لإقامة كيانات مستقلة وراسخة. الكسالى، الشهوانيون،اللواطيون،المحتالون والمفسدون، والبغايا، والإرهابيون، المشعوذون. المتغندرون فى حالة يرثى لها والأثرياء اللا أخلاقيون. صورة مصغرة تعج بالمؤامرات، تعج بالرغبات التافهة، تلتهم بعضها البعض بسبب الحب ، الغيرة الكراهية. كل عالم بلزاك يقبع فى المنزل الخرابة الذى يمتلكه سى خليل فى أسفل زقاق السبع بنات القذر. باختصار، إنها الإنسانية.

بين هذه الحيوانات، الكذب هو الملك. الخيانة هى العملة الرائجة. وبالتالى فإن الابن الضال يسخر من أبيه المفصد فى عروقه الأربعة مختلقا "مؤهل مهندس". قطعة الورق،الزائفة تماما، المعرب عنها تكون من الآن موضوعة فى برواز باحترام ومقدم لها الإعجاب من الجميع. دون ندم، لأنه "حيث البحث عن الشهادات فى مثل هذا المجتمع الفاسد ،يجب أن يكون لديه هو ذاته نفس حقيرة ". ونحن لا نتفاوض مع النفس. مخلوقات قصيرى الأرستقراطية تكمن فى هذه الكيمياء الاجتماعية الخفية: من البؤس يولد النبل الداخلى ومن العوز، قداسة مشكوك فيها.هذه تخريبية بارزة، ولكن هذا هو المكان الذى يود قصيرى أن يأتى منه.

عدوه الوحيد ليس شيئا آخر سوى الحاضنة التى تدعى أنها تعلمنا والتى سوف نشعر إن عاجلا أو آجلا بألمها. بالتأكيد هناك العنف ... " لا يجب علينا أن نحتقر أولئك الذين يأخذون زمام المبادرة لبدء المحرقة بمواردهم المحدودة. أى قنبلة صغيرة تنفجر فى مكان ما يجب أن تفرحنا، لأن الضوضاء التى يحدثها انفجارها، بالكاد نسمعها، تخفى ضحك صديق بعيد . لكن الثورة، حتى لو كانت مطلوبة، مستدعاة جميع الوعود، هى قضية

---

* أفاتارات : تجسيدات أو تحولات .

الناهضين فى وقت مبكر. يبقى السلاح الأسمى، السخرية: ماذا يمكن أن يكون أكثر كفاءة، لتشويه سمعة نافذى الكلمة، من أن نعود بهم لأضرار خطابهم الذى حرمهم النمو؟ إن تأليف مديح متدفق عن حاكم، غير كفء بشكل ملحوظ، يشكل بالفعل إهانة ؛ إلصاق مثل هذا النص فى المدينة،عن طريق الإيحاء بأن هذه الفكرة الرائعة تنبع من زعيم، يرقى إلى ارتكاب أسوأ الهجمات على نحو سرمدي. السخرية والحقيقة بالتأكيد لا يقومان بعمل جيد مع الحملات الانتخابية. كل واحد من كتبه هو تنويع وإسهاب فى " تذكر أن احترس،" لتواجه التهديد المتزايد الذى تنوء تحته كرامتنا. لم ينخدع قصيرى فى عملية تضامن منافقى عصرنا. من بين طموحاته المفرطة وجانبها الخبيث بشكل خاص هو التمكن من تغطية ما نهب منه. التوسع الاقتصادي؟ "رطانة باروكية للتكنوقراط الغربيين" "فى ظل هذه الصيغة الساحرة، حاول المستعمرون القدامى إدامة النهب بإدخال أذهان الاستهلاك عند الشعوب الصحيحة التى ليس لديها حاجة لامتلاك سيارة كى تشهد على وجودها على الأرض ". قصيرى أو التعنت حتى. ويستخدم فى ذلك أى الأسلوب! واضح حاد ودقيق. مشرق. نثر الصائغ الذى يقتطع جملة يوميا وربما ينجز قصة فى عشر سنوات ، لكن حتى يلمس الجوهر. زمنيا أو بشكل عشوائي، فى الحياة أو فى الشهر، يجب استكشاف كل زاوية من زوايا هذا الكون المكثف، الذى يخبئ تناقضاتنا ومآسينا ومساخرنا . لا بد من ارتياد المقاهى حيث إننا نغير العالم أو نتملص من بعض التناحرات، وهذا هو معرض الأمراء، والمجاذيب والكلاب. لأن "الأوباش هم ملح الأرض".

فريديريك ساينين
ناقد فرنسى

"بشر نسيهم الله"

إنها عبارة عن مجموعة من القصص القصيرة التى ظهرت أولا فى مجموعة من المجلات ثم جُمعت بعد ذلك. لم يعُد قصيرى أبدا إلى جنس القصة سوى بشكل عرضى فى نصه الأخير تماما "ألوان العار" الذى لم تستوجب سوى ٧٨ صفحة وأربعة فصول. إن قصيرى حكاء بديع، وفى هذه المجموعة يظهر بذخ الأفكار التى سيتمكن من معالجة الكثير منها فيما بعد على نحو أكبر.

ومجموعتنا تتألف من خمس قصص أولى هذه القصص: «ساعى البريد ينتقم»

١- "ساعى البريد ينتقم"

فى شارع السيدة الحامل ، يتحدث زوبا ساعى البريد مع حنفى المكوجى. سكان يعيشون فى فقر مدقع (وهذا يشكل نوعاً من الحماية لأن الفقراء لم يعد لديهم أى شىء حتى يفقدوه). يهدد حنفى المكوجى بالحجز عليه، لكن لا يوجد أى شىء فى دكانه ولم يعد يعمل كواءً لقد أصبح دكانه أشبه بـ "غرزة" لتدخين الحشيش. ساعى البريد زوبا مكروه إلى حد ما بشكل عام، لكنه يرى مع ذلك أنه متفوق.لأنه يمتلك كل أسرار الشارع التى يحكى بعضها لحنفى.

" _ فرجل مثلى ، يا أخ حنفى، يجب أن يكتب مذكراته . (وسوف أكتبها ذات يوم) أعرف أشياء خارقة إلى حد بعيد !أرى كل يوم أشياء خارقة إلى حد بعيد! آه! فقط إذا حكيت نصف ما أعرفه عنكم."

غربل حنفى المكوجى ساعى البريد بالسباب وسأله لماذا لا يزال يأتى إلى الحى. تأتيه إجابة زوبا بأنه صاحب رسالة.

" اسمعنى جيدا، يا حنفى، لقد اضطلعت بمهمة سامية، لقد تسلمت المهمة لإحيائكم مرة أخرى."

يمثل زوبا التقدم والحضارة بينما يمثل حنفى الجمودية. من دون شك مهمة زوبا منذورة للفشل.

٢- البنت والحشاش

"هذه البنت التى منحته نفسها لم تكن تهمه مطلقا. ما كان يهمه، هو، كُرية الحشيش الصغيرة، التى يمضغها المرء بتلذذ ليستخرج منها خلاصتها أو ينثرها من خلال الدخان الساحر لل"جوزة". بعد أن مارس معها الجنس ذات مرة كان فيها تحت تأثير المخدر الإلهى، لم يعد يستطيع التخلص منها."

بنت تطارد مدخناً للحشيش بمداعباتها. بينما هو يهتم بالمخدر أكثر من اهتمامه بالجنس. ومع ذلك تصل الفتاة إلى غايتها، من دون أن تغير فى الميول الفعلية للرجل. هذا النص يحدثنا كثيراعن العلاقات بين الجنسين وأهمية الحشيش. نقابل الموضوع نفسه فى نصوص أخرى كثيرة.

٣- الحلاق يقتل زوجته

هى قصة معقدة تقيم بعض المقاربات ونتيجة لذلك تمنح الشعور بوجود تشتت ما.

عشية ليلة العيد يحمل ابن شاكتور حزمة برسيم إلى المنزل.

" - خروف العيد، يا أبى. عالجت أمر البرسيم. الآن لم يبق لك إلا أن تشترى الخروف."

شعر شاكتور باضطراب عميق بسبب سذاجة ابنه كما شعر نفسه مذلولاً أمام الفقر الذى يبرز له.

– العيد ليس لنا، يا بنى، نحن فقراء.
بكى الطفل، بكى بمرارة.
– لا يهمنى؛ أريد خروفا.
– كرر شاكتور :
– نحن فقراء،
– سأل الطفل :
– ولماذا نحن فقراء؟
– اسمع، يا صغيرى، فلتذهب لتجلس فى ركن واتركنى أعمل. لو أننا فقراء ذلك لأن الله نسينا، يا ولدى.
– الله! قال الطفل. ومتى سيتذكرنا الله، يا أبى؟
– عندما ينسى الله شخصا ما، يا بنى ، ذلك للأبد."
هذا كلام شاكتور الذى أخذ منه اسم المجموعة .
يفكر شاكتور السمكرى فى الجريمة التى تتناقلها الناس فى الحى: تسميم سعدى لزوجته.
هناك أيضًا وصف مطول لتمرد كناسى الشوارع فى أجمل أحياء المدينة الأوروبية (القاهرة).
"كانوا حقا أشبه بالبشر؛ لكننا كنا نرى أن ذلك لم يكن أيضا سوى بداية. هناك الكثير من الأمل أن يصبحوا بشرا بالفعل. ظهرت إرادة الثورة بداخلهم كمرحلة بلوغ جديدة."
«يحاول شاكتور أن يسأل حاروسى لماذا سمم سعدى زوجته، لكن حاروسى يرفض التحدث» : حسنا! لن نتحدث بعد. سوف نتعلم من الآن فصاعدا أن نعيش من دون أن نتحدث .
"فى كل مرة يحدث أن أقابله، يستدعى بداخلى نفس الفكرة: لماذا لا يوجد مدرب الرجال؟ ربما سوف نتمكن من معرفة ما يستطيع أن يفعله الرجال."

معاناة شاكتور كبيرة لكن دون شكوى ، إلى أن جلب ابنه حزمة البرسيم. فجاءة ، يعى بؤسه ويبدو الأمر كما لو كانت الثورة قريبة . إنها ليست قصة خطية تصل مباشرة إلى حل عقدتها، بل مجموعة من الموضوعات. بدون شك الوعى بالبؤس هو ما يشكل التحول الذى يمنح هذه الحكاية سبب وجودها .

٤- خطر الفانتازيا

أبو شاوالى صاحب مدرسة للمتسولين، يعلم تلاميذه كيف يصبحون قذرين ومشوهين حتى يستجدوا " الحسنة". شخص يدعى توفيق جاد يمجد طريقة عكس ذلك " طريقة نفسية" يبدو أنها تنتمى إلى عالم الفانتازيا . وفقا لـ شاوالى تمثل الفنتازيا خطر : الفقراء يحتاجون "الواقعية".

– ولكن التقدم يتطلب تعديلات فى كل المجالات، يا سيدى. فقط كنت أود محاولة التجريب.

– التسول لا يخضع لتعديلات. يجب أن يظل كما هو أو يختفى كلية من على وجه الأرض..

وهذا يثير العديد من التساؤلات. هل التقدم أمر سىء؟ هل من الممكن أن يختفى التسول؟ يستخدم توفيق جاد المراحيض العامة لقضاء حاجته بدلا من قضائها فى الشارع. هل هذه إحدى صور التقدم أم وسيلة لتحويل ذلك إلى سخرية؟

٥- الجياع لا يحلمون إلا بالعيش

هى بمثابة استحضار باطنى : فى ضوء القمر، يرى الممثل سيد كرم تحت نافذته كل مظاهر البؤس وقد بسطت.

" عـاريا تحت النور الهـائل للقـمـر، يشى بكل مـا يخـفـيـه الناس داخل أنفسهم : آمال صغيرة للغاية و أحقاد كبيرة إلى حد بعيد . لم يعد يستطيع إخفاء أى شىء ؛ يصرخ بفقره فى كل أرجائه."

وهذا المشهد يقود سيد كرم للتساؤل حول فائدة الحياة.

لقد أدركت جيدا عشيقته رايا قبله بؤس العالم. فضلا عن أنها هى التى تدبر معيشتهما،على الرغم من مرضها. يعلن سيد كرم أن الاحتياجات الأساسية للحياة بسيطة وقليلة. وهذه هى إحدى الأفكار الرئيسة لدى قصيري.

" لقد عاش حتى الآن ليدهش العالم بأمور خارقة متعددة ومتنوعة. أمام اضطراب الشارع هذا، تساءل عما إذا كان حقا هذا العالم البائس يحتاج إلى أن يكون مندهشا."

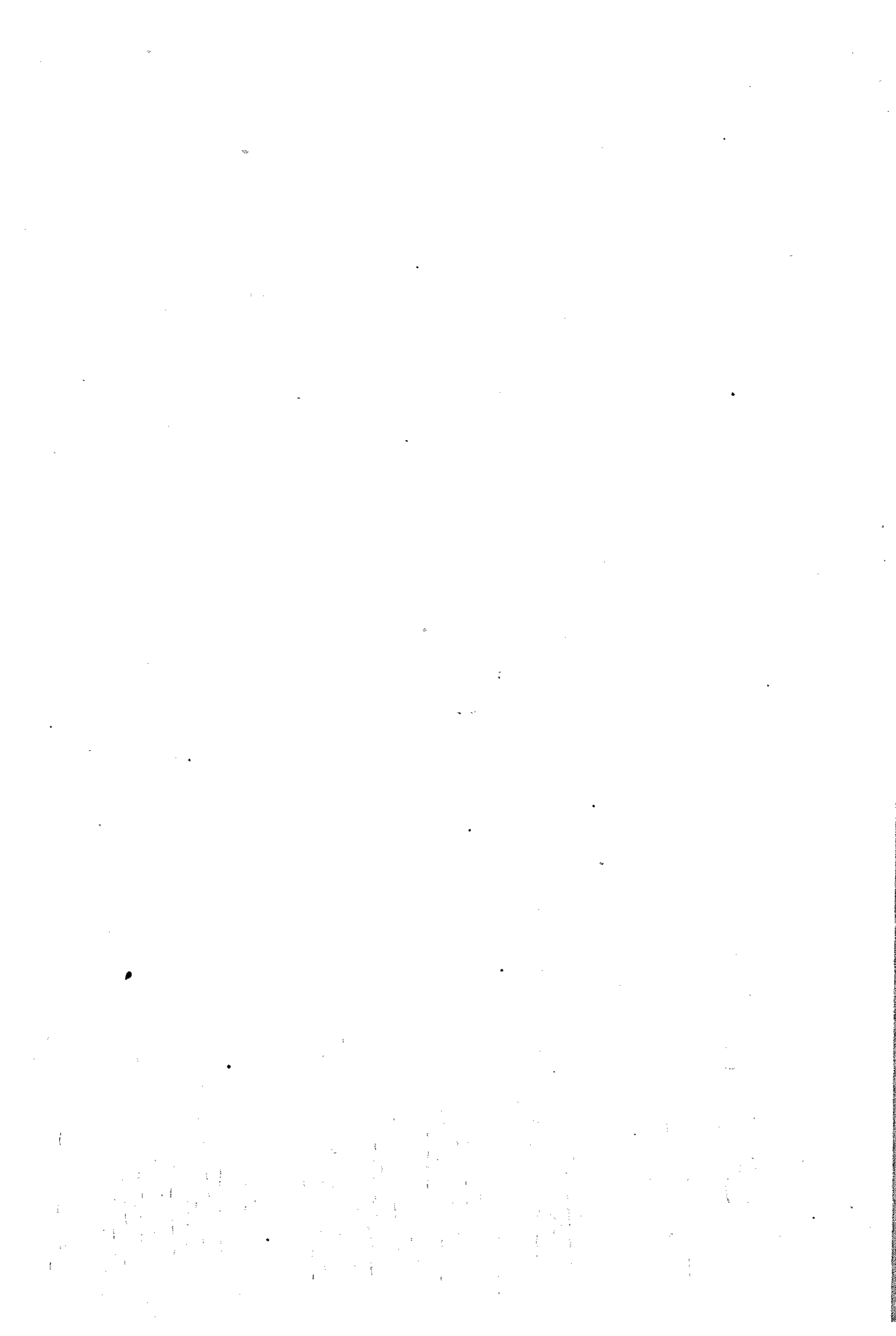
على سبيل المثال فى رواية شحاذون و نبلاء(مختالون) يظهر البؤس بوصفه قيمة إيجابية.

إن ريا عشيقة سيد كرم هى بمثابة معاناة كل الشعب. ولابد أن نقول : إن سيد كرم يشعر بالأسف حيال مصير عشيقته. ليس هناك الكثير لتخفيف هذا المصير. إنها دعوة للتضامن وللحرب تفترض أن الظرف الإنسانى يمكن أن يكون كاملا.

"– العالم لا يحتاج لأمور عظيمة. البشر جوعى يا ريا ؛ فالجياع لا يحلمون إلاّ بالعيش. كل شيء آخر حماقة . مثلا – قال بعد لحظة – الرجل ذو النعال البالية ، أنا متأكد أنه لم يأكل هذه الليلة..."

نشرت هذه المجموعة للمرة الأولى فى القاهرة ١٩٤١ .

لطفى السيد



ساعي البريد ينتقم

كان الجو حارا على نحو رهيب.

عند شارع السيدة الحامل، توقف ساعى البريد، كما كان يفعل كل صباح، أمام دكان حنفى المكوجى.

- السلام عليكم .

المكوجى الذى كان نائما كالعادة تعانى نفسه من هذا التطفل اليومى والحتمى . ببطء، فتح عينيه ونظر للساعى بسيماء بلهاء كانت تطارده منذ ميلاده. بالفعل كان يريد فرك عينيه، إلاّ أن هذه الحركة توقفت عن الاكتمال، دائما ما كان يجد نفسه مشلولا بشكوك غريبة وبلا اسم. بعيداً عن هذا الخمول المعدى كان أكثر رجال الحى ألفة.

رد على ساعى البريد التحية، ثم سقط مرة أخرى فى نعاسه الأزلى والعبثى بشكل جوهرى، دون اصطدام، دون مجهود، كحجر ثقيل سقط فى ماء عميق. كان النعاس مبدأه الفطرى.

لكن ساعى البريد لم يكن سمعه هكذا. فى ذلك الصباح، كان يحتاج إلى أن يتحدث مع حنفى فى أمر استثنائى كان يقلقه كثيرا. كان تعبير وجهه يشير - بالفعل - إلى شيءٍ من التخوف، ولكن ذو طبيعة متواضعة جداً ومن ثم صار أكثر إدهاشا. كما سنرى فيما بعد، تخوف ساعى البريد هذا لم يكن بلا سبب قط.

فبينه وبين ساكنى شارع السيدة الحامل ، كانت العلاقات متوترة جدا. ومع ذلك، تجرأ ليقول:

- استيقظ يا حنفى!

- سأل المكوجى بصوته المحمل بالنعاس :

- ماذا ثانية :

- لا ! لا شىء مطلقا. فقط معى خطاب لك.

هذا الإصرار من ساعى البريد على إيقاظه بدا لحنفى قمة القسوة الإنسانية. لا يمكننا تخيل اضطهاد بهذا الشكل. ولأنه كان يجيد القراءة والكتابة، أصبح هذا الساعى التعيس شخصا مزعجا بالفعل. يُدعى زوبا. لقد ضُرب فى هذا الحي، مرات عديدة، لكنه مع ذلك كان يعود. مستحيل أن تكرهه. هكذا حتى يلبى تكليفات المصلحة، كان يجازف، كل يوم، بأن يعود إلى زوجته على نقالة الإسعاف العمومية. كنا نحسده بشكل خاص على زيه المصنوع من القماش الكاكى الذى كان يثير النفوس بمظهره العسكرى والحربى تقريبا. كانت إدارة مكاتب البريد قد فرضت سيطرتها، فى وقت ما، بواسطة عسكرى شجاع كان يرافقه بوصفه حارسا فى تنقلاته عبر هذا الحى المعاد والممسوخ.

كان الرجل قصيرا ونحيلا. كل شىء فى مظهره كان يعزز الميل للحقد ويجتذب العدوانية. بحقيبة البريد الكبيرة التي تتدلى على جنب كان يبدو عليه مظهر منتج مغشوش من الجنس الإنساني، نوع من الوقاحة المميزة والدالة جدا. كان الصبية السوقيون فى الحى – بينما كان يقوم بجولته – يداعبون مؤخرته العجفاء بضربة يد ماهرة وفاحشة على نحو جميل. حينئذ كان يسبهم بأدب رجل متعلم.

وهذه المهنة الناكرة للجميل، مع كل ما تحمله من أخطار مثل هذه الحال، جعلته يظن فى نفسه شيئا من البطولة. لقد بدأ يرتدى نظارة لا لشىء إلا للشعور بالتفوق.

المكوجى، كغطاس خرج من الماء، ظهر من جديد على سطح الحياة، كان يحمل معه تشكيلة من الأحلام الجميلة التى – بمجرد أن مسها نور اليقظة – صارت حزينة وكئيبة، بل فقدت إمكاناتها بوصفها أحلاما فهى لم تعد غير شظايا من حياة واقعية مرعبة، مملوءة بالقلق والأوجاع. وكان يغضب من

ذلك لظهوره دائما ضعيفا أمام ساعى البريد المزعج هذا. وها هو الآن يريد منعه من النوم. ولكن هل ستسمح السماء بمثل هذه الجريمة؟ أين كانت إذن الإنسانية والبشر العطوفون وكل الحضارة ؟ صرخ ليبدو شريرا، لكن دون حزم، فالنوم يسحقه:

– ماذا تقول يا ابن الكلب! خطاب لى؟ من يكون إذن هذا القواد الذى يتسلى بأن يكتب لي؟ يمكنك أن تحتفظ بخطابك القذر أو تعطيه لأمك. لا أريده. أنت تسخر مني، أيها الساعى الملعون!

كان شديد الصدق فى قراره، ويتفق تماما مع طبيعته اللامبالية والكسول. لم يكن يريد معرفة أى شيء عن هذا الخطاب. هكذا كان.

كان من الممكن أن يتركه له ساعى البريد ويرحل، لكن المصيبة الأعظم، أنه خطاب مسجل. كذلك كيف يجعله يوقع على ورقة التسلم؟ كان زوبا يعرف أن هذا ليس بالأمر الهين. فلدى المكوجى مبادئ خارجة، إلى حد كبير، عن كل الواقع القائم، لدرجة أنه كان من المستحيل إقناعه بسهولة بأى شيء كان .

– والله! يا حنفى يا أخى لا أسخر منك! إنه بالفعل خطاب باسمك. علاوة على أنه خطاب مسجل.

– أقول لك لا أريده، يا ابن الكلب! خطاب مسجل بالتأكيد ليس لى .

– إنه لك؛ أمسك، انظر ! ليس هناك أى شخص فى العالم لديه القدرة على فك شفرة عنوان مثلي. فقط إذا كنت تود التوقيع....

قال كلماته الأخيرة وهو متردد، بدا أنه يفكر فى شيء ما مبتذل وغير موجود. ثم نصحتْهُ كلٌّ روحه بالتريث، وألا يقول أكثر من ذلك.

المكوجى الذى كان يضاجع زوجته طوال الليل، استسلم بسهولة تحت وطأة طول الحوارات. لم يكن يحب المحادثات الطويلة، خصوصا أثناء

النهار. وقصة الخطاب المسجل هذا بدت له غير واقعية، شيئا ما يشبه الفخ. وبما أنه لم يكن يعرف القراءة، فلقد كان يستحيل عليه التعرف على اسمه الموجود على الظرف الذى كان يقدمه له ساعى البريد.

بعد حوار حاد - استمر ما يقرب من ربع الساعة - أراد حقا أن يخربش بما يشبه هرما مقلوبا كشكل للتوقيع. لكنه كان يعزى نفسه وهو يفكر أنه بتوقيع كهذا يجلد الإدارة، هذه الإدارة الكبيرة والفخورة التى توظف فى خدمتها عددا لا نهائيا من الناس مثل زوبا. كان هذا فوزه الدائم.

- والآن ، يا ابن الكلب، سوف تقرأ لى هذا الخطاب أو أقتلك.

بدأ ساعى البريد المهمة بشغف مثنيا على عقلانيته. كان يستطيع أن يوضح لهذا المكوجى الجاهل ما كان قادراً عليه.

شارع السيدة الحامل (سمى هكذا بسبب أن سكانه من السيدات فى حالة حمل دائم) يشغل فى حى المنشية - حى شعبى فى مدينة القاهرة - مكانة متفوقة ومتميزة. فمعظم سكانه من الذكور كانوا يحيون بطريقة عجيبة ويضربون نساءهم تقريبا كل يوم. مما يفسر جزئيا نفوذه على الشوارع الأخرى فى الحى حيث يسيطر العنصر النسائى دون تقيد. هنا، الرجال هم من يسيطرون بل يسيطرون على نحو لا مفر منه.

حسب المقاييس الصحية ، كان لا بد من أن يبعدوا عدداً من الأصوات المؤذية، حسب النظام الطبيعى للشارع. وكان الباعة الجائلون أوائل الذين عانوا من الانتقام. فهذه الكائنات البربرية كانت تصل السادسة صباحا وتنادى كالداعرات على مأكولاتها الوسخة التى تقارنها، بلا حياء، بالفواكه النادرة. وفى هذه الظروف، النعاس الصباحي، العزيز جدا على سكاننا الوادعين، يصبح رفاهية شديدة التعقيد، أملا من نوع خرافي. لقد عانوا لعدة شهور تقريبا للتخلص من هذا الوباء. لكن فى نفس الفترة التى دارت

فيها الحرب ضد الباعة الجائلين، كنا نهاجم أيضا سائقى السيارات ومجموعة من المضايقات الصوتية الأخرى غير المستحبة فى أحلام اليقظة الدائمة. باختصار، لم نرجم كل مقلقى الراحة العامة. لقد كانت نماذج الشراسة تجاه المخالفين كثيرة. فمثلا، من بين آخرين، كان تاجر الخضراوات هذا الذى وجدناه ذات صباح مقلوبا على عربته النقالة، فى وضع شخص يبدو أنه نائم لكنه كان بكل بساطة ميتا.

لقد قاد تحقيق الشرطة إلى اكتشاف مثير. لم يكن اكتشاف القاتل، لأن ذلك التحقيق لم يستمر طويلا فى البحث، لكنه اكتشاف ذو فائدة أخرى، إنسانية على نحو عميق. لقد لفظ بائع الخضر أنفاسه الأخيرة – على ما يبدو – تحت الضغط الشديد جدا للمبولة المصنوعة من الفخار التى كان قد ألقاها على رأسه، من نافذة كوخه (رضوان على) الإنسان الأكثر بؤسا فى العالم. وها هنا تكمن السمة الإنسانية: فالمبولة المصنوعة من الفخار، التى كان قد خبط بها البائع، كانت قطعة الأثاث الوحيدة والفريدة التى ضحى بها ليحافظ على نعاس كل الشارع فى الفترة الصباحية. وأمام مثل هذا المعنى من التضحية، ظل رجال البوليس أنفسهم مرتبكين.

والآن، حيث الشارع هادئ نسبيا، كنا نستطيع النوم حتى الظهر، دون أن يكون هناك أى شكل من مضايقات الضوضاء الخارجية. أصبحت الحرارة شديدة وسيئة بشكل واضح. ينتظر حنفى، مترددا، الخروج من هذه القراءة المؤذية. فالنوم كان يعذبه.

– سأل فى نهاية المطاف :

– إذن ما هذا ؟

لقد اتخذ ساعى البريد سيماء فقيه وقال بنبرة شديدة الثقة:

– إنه خطاب من شنتوح الجزار .

- شنتوح الجزار! حبسنا ماذا يريد منى، هذا هو الآخر؟.

- يبدو لى أنه يفهم، ياعزيزى حنفى ، أنك مدين له بشىء ما.

- أنا، مدين له بشىء ما! أي شيء. يا زوبا، يا ابن أمك، هل ستتوقف عن تعذيبي؟ والله! أنت لست ساعى بريد، أنت دمار ، يا زوبا ، يا ابنى، أحبك... فقط اتركنى هادئا.

لكن زوبا لبث جامداً. فهذا العمل الأدبى كان يهمه لأبعد حد. فى الحقيقة بعض عبارات الخطاب كانت تخرج تماما عن نطاق علمه. لقد وجد نفسه أمام أدب ثرى وجانح فى اختيار مفرداته. لقد أسند شنتوح الجزار تحريره إلى أحد الكتبة العموميين ذوى الموهبة والقريحة غير العاديتين.

ولمزيد من الدقة أعاد زوبا قراءة الخطاب مرتين أو ثلاثا ، ثم ختم بشكل حاسم.

- حنفى، يا أخي، الأمر كله فى منتهى البساطة ... فدكانك يمتلكه شنتوح الجزار... وأنت لم تدفع له لمدة ستة شهور.لذلك اضطر أن يعرفك إنه لو - فى خلال الأربع والعشرين ساعة - لم تصبح فلوسه فى حوزته، سيحجزعليك .هذا كل ما فى الأمر.

- سيحجز علىّ ؟ ثم ماذا؟

ساعى البريد، الذى كان يترقب انتصارا، اشمئز من هذه الإجابة غير المتوقعة.

- سأتركك، السلام عليكم.

فلتبق هنا، يا ابن الكلب! يا ساعى بريد الشؤم! كنت أظن بالفعل أنك لا تستطيع أن تجلب لى إلا الحزن. قل لى: سوف يحجز على دكانى؟

- على الموجود فى الدكان.

– لكن ليس هناك شىء فى الدكان!

كانت هذه الملاحظة أساسية بشكل واضح. ولم نكن بحاجة لإرهاق أعيننا حتى نلاحظ أن دكان هذا المكوجى كانت حالته تسوء شيئا فشيئا حتى صار خاليا. فهناك على حدة، منضدة كبيرة من الخشب مغطاة بقطعة قماش رمادية كان يستخدمها فيما مضى فى الكى، فضلا عن ذلك لم يكن يوجد سوى القليل من الأشياء التى لا قوام لها والتى تطمسها القذارة وقحط المكان.

– يقول زوبا :

– بكل تأكيد، سوف يبيع المكاوى ،

– المكاوى! حسنا سأتولى ذلك قبل أن يتمكن من بيعها ابن العاهرة هذا!

فهذه المكاوى التى قد تُركت فى المخزن ، يأكلها الصدأ تماما ، كانت تشبه تحفا أثرية. فكل شىء، بالتأكيد، فى المخزن، كان يبدو خارجا من تنقيب ما حديث. فهناك أيضا وفى بعض الليالى كانت بعض الشخصيات الوجيهة فى الحى تأتى لتتذوق ملذات الحشيش المحظورة. بهذا المعنى، كانت أهمية دكان حنفى رئيسية فى كل الحى.

وبهذه الضربة المباغتة، القادمة من الجزار، سينقلب الوضع نو النظام المستقر تماما. أين سندخن المخدرات؟ فلابد من أن تتم وبأقصى سرعة معالجة هذه الكارثة المباشرة والمرعبة.

– سأل ساعى البريد :

– أتعتقد أنه شديد الثراء ؟

– من إذن؟

– شنتوح.

– بكل تأكيد هو ثرى؛ فكل هذا الدكان له، رد حنفى الذى كان يظن أن مسألة امتلاك دكان كانت تمثل ثروة هائلة. كانت رائحة الحشيش

التى لاتزال فى الهواء لها أهمية كبيرة فى هذا التقييم. فالمكان الذى كان يتعاطى فيه الحشيش أخذ، فى ذهن المكوجى، أهمية مكان مقدس.

- إذن، ماذا ستفعل؟ أصاب ساعى البريد القلق بينما كان يريد الرحيل، لكنه كان ينتظر حتى يجد حنفى حلا لمصيبته.

- الأمر بسيط جدا ، سوف أذهب لأضرب زوجتى، قال حنفى بصوت كدر وقدرى. ليس هناك وسيلة أخرى.

- لماذا ، هى من لديها الفلوس؟

- لا، إنها حماتى. وهى لا تحب رؤية ابنتها تُضرب. لديها قلب. أتفهم إذن؟

مع أن ساعى البريد كان يفهم الأمر جيدا . فإنه كان ممتعضا من هذه الأخلاقيات. كإنسان أعلى ومتعلم، صمت.

- ها أنا مضطر للذهاب كى أضرب هذه الفتاة الضائعة، كرر المكوجى. حتى تصرخ بأقصى ما يمكنها فهى تستطيع، بمفردها، أن تحل محل حشد من النائحات فى مراسم جنازة. كذلك يمكن أن يقال إننى أجرسّها، وإن الضجيج الذى يخرج من بدرومى يشوه الوجود ويصيب الشارع كله بالمرض. ولكن ما العمل؟ ومع ذلك يجب أن أدفع لهذا الملعون شنتوح. فبدون ذلك، الوداع لجلسات الحشيش. كانت فكرة الاستيقاظ تشغله منذ لحظة. أمر ساعى البريد: "انتظر هنا. لا تتحرك أبدا ، فلا أزال فى حاجة إليك."

بحركة بطيئة، وعلى نحو عديم الفائدة تماما وخارج الوجود، ترك الكرسى الذى يجلس عليه والذى كان يبدو كأنه قد سُمر فيه منذ الصباح، ثم عمل بأقصى طاقته عدة مرات، وتثاءب بطريقته المتحررة والسامية. كان جلبابه الأبيض يأخذ اللون الرمادي الكئيب. لم يكن كدرا فقط بسبب فقره،

لكن ببساطة بسبب نسيان كل الأمور الخارجية لحلمه الحميم، حلمه النبيل، النفيس والإلهى إلى حد بعيد؛ لدرجة أنه كان يخاف أن يفقده فى الطريق لو تحرك، لو قام حتى بأقل حركة. فكل شخصيته تذوب فى الدكان، تنتشر فى الجو، وعندما - يتخلى عن النوم - يدخل إلى الحركة كأمر وجيز وبلا قيمة.

طاف بالمخزن ليبحث عن قطعة من الخشب لا شكل لها كان يستخدمها كهراوة .

الشمس، فى أعلى السماء، تقترن بالأرض عبر أحضان مجنونة. والهواء تثقله أنات تشبه صرخات مخنوقة لعذراء تتمزق. إنها جسم ساخن ينفُذ، يتدفق عبر الحياة، يلسع الكائنات، يوقظ وحوشا فى أجساد الأطفال دون مقاومة، ناهبا كل شيء من خلال حنقه الجهنمى ، ومانحا الظمأ ، ظمأ لكل شيء: الشفاه ، النفس، العيون ، الجسد. آه! من سيخلص البشر من هذا الجحيم؛ من العواصف الترابية التى تُعمى ، من التراب الذى نتنفسه، نبتلعه دائما وفى كل مكان؛ من العرق ، الذى يغرقك بمائه الدافئ الذى ينز بامتداد جلدك ويجعل ملابسك الخفيفة تماما لا تحتمل ولزجة حتى إنها تجعلك ترغب فى الموت. لا بد أن هناك بعض الفضلات تجف أسفل أحد الجدران، فالذباب الذى لا يحُصى - شعب الذباب المرعب - يحط منتصرا على الجروح ، يبحث عن الطعام فى جوف محاجر العيون المفقوءة والدامية؛ بالقرب من أنوف الأطفال حيث المخاط اللامع يجذب جماعتها المنفرة؛ مسمما الطعام الخشن المخصص للفقراء، الفقراء الذين ما عادوا يتألمون، لا يتحركون، لأنهم مشمئزون من هذا العالم ومن كل هذه الأشياء.

عاد حنفى ووضع هراوته بالقرب منه على المنضدة. لم يكن قد حسم أمره تماما بخصوص ذهابه لضرب زوجته. فكل تعبه كان ينصحه بالعدول

عن عمل تملؤه الحركة أيضا.

– سأل ساعى البريد :

– وأنت يا زوبا هل تضرب زوجتك ؟

– أنا، أضرب زوجتي! قال زوبا مصدوما. من تظنني، فلاح! أنا أحترم زوجتى وهى كذلك. هى تعرف أى رجل ذكى أكون.

– اسمع يا زوبا من الأفضل لك أن ترتدى جلابية . فهذه البدلة العسكرية لا تناسبك على الإطلاق. لا،والله! لا تناسبك لا تناسبك أبداً. صدقني، أنا مشفق عليك.

– وفر شفقتك لنفسك ولكل أبناء الحي. لست فى حاجة لذلك، فأنا رجل من البارزين. أنتم تكرهوننى أشد الكره وتضطهدوننى، وسوف أظل دائما أشد منكم قوة.

– وكيف ذلك؟ سأل حنفى متشككا. لقد هزته كل أحداث هذا الصباح غير الواقعية . إنه لا يعرف حتى الآن ما الذى منعه من ذبح ساعى البريد.

ضجيج أوراق شجر جافة وطنين حشرات. فأقل اهتزاز للمادة تدركه الأذن. الناس نائمون. يصبح أكثر وقارا الوقت الخالى من الناس ومن لغوهم الخالد. الحريق المستمر من جميع الجهات يجعل الانتظار لا يحتمل وعواقبه وخيمة. يوازن زوبا بين رغبته فى الإيضاح الكامل – أن يقول كل شىء – وخوفه الفطرى من الانتقام. لكنه الآن يشعر أن لديه الكثير ليقوله، حيث، إنه لو توقف الآن – فعلى العكس – لن يؤدى ذلك إلا لمفهوم خطأ عن فكرته. هكذا تبدو الكارثة عبثية بالنسبة لـ زوبا الذى يود أن يظهر له طابعها العظيم حقا.لا، فالأفضل عدم الانتظار. ربما لن تكون الفرصة سانحة بعد الآن. وهذا الحنفى ليس شديد الشر. وزوبا يثق فيه، يعرف طبيعته السلبية بما يكفي، شريطة أن نتركه ينام. إذن، مم يخاف؟ ليس هناك أحد فى الشارع، كما أنه ليس هناك أحد بجانبهم حتى يسمعهم. شىء ما قال له إن

هذه اللحظة سيكون لها تأثير حاسم على مصيره.

من بعيد، يصل مواء قطة جائعة. فى فناء مجاور، نخلة عجوز محنية تتساقط بلحاتها الناضجات. الضوضاء الحادة التى كانت تحدثها وفى تسقط فى التراب تخترق القلب كطعنة سكين. فسقوطها كان متباعدا على نطاق واسع، وبين كل منها، ثمة لحظة قلق. وزويا، كلما صمت، يشعر أن قلقه أصبح موحيا أكثر، غامضا وعنيدا كالرغبة فى الزنا. الصمت، الصمت إلى متى؟ يلتفت ناحية الشارع، ينظر مرة أخيرة ليطمئن أنه لا يوجد حتى أى حيوان صغير يستطيع أن يسمعه، ثم همس فى أذن المكوجى:

– حسنا، سوف أحدثك عن ذلك الأمر! تخيل إذن، يا حنفى، أننى لدى هنا، فى هذه الشنطة، كل أسرار الحى. أى أمر من الأمور، أليس كذلك؟ تصور قصصا صغيرة محبوسة فى حقيبة أجرجرها تابعا خيالى. ربما أستطيع إلقاءها فى أى ماء مجارى. لكن لا، أفضل التعلم من محتواها، الهذيان حول نصوصها وأن أعرف كذلك إلى أين وصلتم فى وجودكم العبثى. أتدرك أهميتى الآن؟

– لا، على الإطلاق. أنت تهذى، أيها المسكين التعس.

– حقا فأنت لست حاد الذكاء، مما يلزم أن أوضح لك. سوف ترى كيف أننى أستحوذ عليكم. اسمع، يا حنفى، كل هذه الخطابات، التى فى حوزتى، ماذا تعنى لكم، لكم يا من لا تعرفون القراءة؟ لا تعنى أى شىء غير حفنة من الورق، أليس كذلك؟ ولا يستطيع أحدكم فك شفرة أحد هذه الخطابات التى يتسلمها منى. دائما أقرأها لكم. أتفهمنى الآن؟ فكل مواقفكم المحرجة، كل تجاوزاتكم، كل رذائلكم، أعرفها بكل تفاصيلها الأكثر وضاعة والمثيرة للاشمئزاز جدا، آه، يا حنفى، يا عزيزى، لن تعرف ما يمكن أن يخفيه

خطاب.

ما الذى دفعه للبوح هكذا بهذه الأفكار السرية، التى كان يحتفظ بها فى أعماق نفسه، كعزاء مستحق عن تضحيته، مجده الخفى، لكنه أكيد؟ ما كان يستطيع أن يقول ذلك. فلقد أفلت منه، رغم سنوات الصبر العنيدة، فاض بغرابة ودقة، معرضا إياه للتهلكة. لكنه لم يعد يستطيع التوقف.

– نعم، ليس هناك ما يمكننى إخفاؤه. لقد قلت كل شىء، قلت لك.

وقف على أطراف أصابعه وبدا له أنه صار كمنارة عالية، يسيطر على كل شيء بعلوه، فأهالى هذا الحى وأهالى الأحياء الأخرى كذلك، جميعهم تسحقهم الحكمة المنبعثة من كلامه، فهو، النبي، النبى الساطع المعترف به أخيرا. وعيناه ، متوهجتان خلف زجاج النظارة، تطلق ومضات كالتى تطلقها عيون الحيوانات المفترسة لحظة قضمها فريستها. لبث المكوجى للحظة مذهولا بهذا التحول لساعى البريد. قال، مرعوبا، هو أيضا لم يعد يطيق توقفه الآن بل يريد منه أن يخبره من ذلك أكثر:

– ماذا تعرف؟ يا ابن الكلب!

– آه! تريد أن تعرف؟ جميل، حنفى يا ابنى، فلتفتح أذنيك. (بالتأكيد ساعى البريد تحول لشخص شيطانى). اسمع، هل يهمك أن تعرف أن مانزول ، مروض القرود متزوج من زنجية من السودان؟

– آه! نعم،إنه أمر مثير جدا؛ لكنى أود أن أعرف كيف عرفت ذلك؟

– لا شىء أسهل من ذلك، سترى. فمنذ شهرين أحضرت له خطابا عليه طابع بريد سودانى، مرسل من هذه الزنجية، زوجته. فهو كان قد تزوجها ثم هجرها– على ما يبدو– عندما سافر للسودان ليبحث عن قرود مدربة. ويرجع تاريخ الحكاية لبضع سنوات سابقة. لكن الزنجية العنيدة تمكنت فى نهاية المطاف من معرفة عنوانه. فهذه الرسالة الغارقة فى الرقة المفرطة والصاخبة، تليق برسالة حب صاغها أحد الكتبة الزنوج العموميين. ولزاما

علىَّ أن أقرؤها، رغم أننى كنت مشمئزا للغاية أثناء قراءتها.

- هذا رائع! صرخ المكوجى. زوبا، يا ابنى، أنت شيطان.

- أعجبتك هذه الحكاية؟ أتريد واحدة أخرى؟ خذ، اسمع هذه. أبوخضرة العبقرى أبوخضرة، عراف الحى فى مسألة الحب هو نفسه عاجز. كيف عرفت ذلك؟ الأمر بسيط جدا؛ أيضا مسألة خطاب. فهذا العجوز الخرف، على ما يبدو ، كان قد سمع كلاما عن شيخ يسكن قرية ببا، فى مديرية بنى سويف، فهو يعرف وسائل لا تخطيء لعلاج العجز. ونتيجة لذلك دخل فى مراسلات معه. والآخر لم يتوقف عن محاصرته برسائل مملوءة بالوصفات، بالأحجبة (غير المفهومة دائما) وبمطالبات الفلوس (وهنا الكتابة فائقة العناية). أيجب أن أقول لك إننى كنت المسئول عن مهمة التعامل مع هذه المراسلات؟ لا، ليس كذلك، أنت تفهم هذا. والآن هل تريد حكاية أخرى، أم اكتفيت هكذا؟

- نعم، اكتفيت. أنت شيطان حقيقى. لم أكن أعتقد قط أن ذلك ممكن. لكن قل لى إذن: ماذا ستفعل؟

- أوه! لا شىء غير عادى؛ سوف أستمر فى الحياة وفى اختراقكم. ولن يعرف أحد هذا. فليس هناك إلا أنت وأنا من يعرف ذلك. لكنك لن تقول أى شيء، أليس كذلك؟ يبدو لى أننى قد اخترتك منذ زمن طويل لأخبرك بكل هذه الأمور. أنت أضعف كثيرا من أن تخوننى.

كان حنفى مفزوعا من هذا الاكتشاف. يزعجه التفكير فى مثل هذه الأمور الخطيرة، والشيطانية أيضا التى مع ذلك مشكوك فى حقيقتها. فساعى البريد الذى كان موجودا، أمامه، لم يكن هو زوبا، المضحك والمأساوى، الذى كان يعرفه جيدا سكان شارع السيدة الحامل، لقد جعل

الحياة بالنسبة له مستحيلة، إنه يطارده دائما بنزواتهم. هو شخص آخر، ربما الشيطان زوبا حل محله، لأن زوبا الحقيقى، الكائن الهادئ والخاضع، ربما كان مريضا أو فى السجن. وما كان يعطى أيضا هذا المشهد احتمالية الكابوس، الوحدة القاسية التى كان يدور فيها. لو كان هناك شخص ما يمر بالشارع فى هذه اللحظة، ربما سيجد حنفى القوة لاستدعائه لمساعدته. لكن لم يظهر أحد.

كان ساعى البريد يستمتع بانتصاره. يعتقد أنه وصل لنوع من القُمة الباعثة على الدوار، الخطوة الأولى فى انتصاره على قطيع الجهلاء العفن. كان ذلك اليوم بالنسبة له يوماً سعيداً. نعم، فلقد بدأت نشوة زوبا من الصباح الباكر، بالفعل قبل هذا الحوار مع المكوجي. تذكر زوبا وجه المجهول، وجها ينضح بالذكاء وأيضا بعبقرية أكيدة. كان الاثنان يوجدان جالسين، فى شرفة مقهى" الحياة السهلة" يشربان كوبا من شاى. وها هنا حيث يدور هذا الأمر غير العادي. المجهول، الجالس على مائدة مجاورة، كان قد ابتسم فجأة، كمن يحاول أن يجعلك تفطن لموقعه وفضلا عن ذلك، يعتذر عن عدم قدرته على أن يكون ذا فائدة عظيمة لك. فى البداية، لم يفهم زوبا تماما مغزى هذه الابتسامة. ماذا كان يريد منه المجهول؟ هل كانت تمثل علامة تعاطف من جانبه، تعاطفا حارا تتعرف من خلاله العقول النابهة على بعضها؟ نعم، لا يمكن أن يكون غير ذلك. فالمجهول (بلا شك رجل واسع الثقافة) لقد تنبأ بداخله، زوبا، إنه شخص من النخبة الضائعة نتيجة خطأ الجهل المحيط، المصاب بالرداءة العامة، إلا إنه معترف به ومستحق الاحترام. كذلك كان يخبره عبر هذه الابتسامة، عن مدى الألم الذى كان يشعر به كونه موجودا هنا، وغير قادرعلى القيام بأى مساعدة له.

لقد تم اختراق زوبا بهذا التعاطف الصارخ الذى كان يظهره المجهول.

لقد ود الذهاب إليه والجلوس على مائدته حتى يخبره بامتنانه وأيضا ، إذا لزم الأمر، يدفع ثمن المشروبات. لكن الآخر كان قد نهض فجأة، وابتسم له مرة أخرى نفس هذه الابتسامة الجهنمية، ثم رحل قبل أن يترك لزوبا وقتا لتنفيذ فكرته. هذا الرحيل المباغت كان قد تركه للحظة حالما (أعرب عن أسفه المجهول)، وفى نفس الوقت تولدت بداخله موجة من الفخر كانت مكبوتة منذ فترة طويلة فى قلبه. أخيرا هناك كائن فى العالم كان يعرف، دون الحاجة للاقتراب منه، ما يمثله، زوبا. أخيرا المجد يعلن عن نفسه.

إن هذه المقابلة القدرية فى الصباح هى التى منحت زوبا هذه الثقة فى حواره مع المكوجى، التى جعلت هذا الأخير لم يعد يعرفه .

فى هذا الوقت مرت، عبر الضوء الصاخب فى الخارج، عربة الرش العمومية الضخمة. كان يتخلل ماسورتها المصنوعة من الحديد الزهر العديد من الثقوب، تسمح بخروج نفثات مياه رفيعة تشبه مجموعة من الأطفال يتبولون. وتحت هذا الدش الخيرى - ابن الحاج سليم البقال - عارٍ كما ولدته أمه، هاج وماج، وهو يصيح ويصرخ بفرحة عارمة. فالمياه أثناء سقوطها من حوله أثارت الغبار فكان ذلك يشبه حمام بخار. كما كانت متعته كبيرة إلى حد بعيد لأنه المستفيد الوحيد من هذا الرزق الغيبى. فعادة، كل أطفال الحى كانوا ينتظرون هذه الساعة الإلهية من الانتعاش؛ لكن، فى هذا الصباح، زلطة هو الوحيد الذى يتحرك فى النطاق الضيق لرشاشات المياه. استسلم لفرحته، شعر بعبقريته ولم يتخيل أى شيء فيما وراء هذه السعادة: يشعر بالماء ينزلق على كل جسمه، ينتزعه من الحرارة المراوغة التى تقتله. أراد المكوجى أن يقدم لنفسه دعما من خلال واقع أقرب ما

يكون ، لأنه يعتقد أنه غرق فى كابوس لا نهاية له، صاح:

- هيه، ولد يا زلطة، تعال هنا!

نظر الطفل ناحيتهم؛ رأى زوبا، ساعى البريد المُخصص لكل أنواع البطش - ودون مغادرة الدش- رماه بسباب فاحش مبتكر. بالتأكيد الاكتشاف الأخير لسفروت - المبتكر العظيم للمزح الساخرة - والذى يُعلم أطفال الحى الفن الخفى لإيجاز حياة الناس، بوسائل بسيطة سواء بحركة بذيئة أو بكلام.

لم يرد زوبا على إهانة الصبى. إلا أنه ،أكد، على نحو قاسٍ ولاذع:

- ها هو طفل يجب أن نعلقه. إنه مصيبة حقيقية لهذا البلد.

- آه! قال المكوجى المستغرب دائما. ومع ذلك أجد أن ما قاله لك رائع.

- كأننى لم أكن أعرف أصل ذلك! فلا يمكن أن يكون هذا غير اكتشاف مشين لهذا الملعون سفروت . أتساءل عما فعلته الأرض لتلد مثل هذا الإنسان. لأنك، يا حنفى يا ابنى، لا تعرف أى زعم لهذا الإنسان الجاهل والقذر. أتعرف فقط ما تجرأ وسألنى عنه ؟ حسنا، تجرأ أن يسألنى عن مكان المؤسسة التى تصدر براءات الاختراع للمبتكرين. أتعرف لماذا؟ أخبرنى بذلك: يريد بكل بساطة عمل براءة اختراع لكل الشتائم الجديدة التى لا يتوقف عقله البائس عن إنتاجها، رغما عن الأخلاق،عن البوليس وعن كل الحضارة. ما رأيك؟

يضحك المكوجى، ضحكة غريبة، وعالية، كما لو كان تحت تأثير الحشيش. فهو لم يكن قد فهم جيدا حكاية براءات الاختراع، ولكن كل ما كان يتعلق بسفروت (كان مقدسا فى الحى) لابد أن يطلق العنان للضحك. قال:

- يا زوبا، أنت مدهش. لو لم أكن أعرفك ابن كلب، بشرفى، كنت

ستخيفني. حقا، أنت رجل مدهش.

- رجل مثلى، يا أخ حنفي، يجب أن يكتب مذكراته. (وسوف أكتبها ذات يوم) أعرف أشياء خارقة إلى حد بعيد ! أرى كل يوم أشياء خارقة إلى حد بعيد! آه! فقط إذا حكيت نصف ما أعرفه عنكم.

يدرك حنفى أن ساعى البريد يبالغ. لكنه لا يعرف كيف يمكنه أن يفهمه ذلك. بلا شك لم يكن الموضوع يتعلق بإحراجه ولو بكلمة. ففيما يخص عملية الإقناع، لم يكن يعرف المكوجي غير الشتائم . كان يتجاوز بحماسة فى هذا الاتجاه.

- يا ابن الفاجرة، يا قواد، يا لوطي! سممتنا فى نهاية المطاف. والله! لا يجب أن نراك بعد فى هذه المنطقة، وإلا حينئذ سنفقأ عينيك. ماذا تريد منا إذن، يا ساعى بريد التعاسة؟ لماذا تأتى إلينا على الرغم من كل ما نصيبك به من معاناة؟ أنت شيطان.

لم يوخز عقل زوبا أى قلق . ولم تعد تخيفه شتائم حنفى. يشعر حقا أنه شيطاني، زارته نفثة ألف شيطان. شعر أن كل حياته كان قد اشتغلها من أجل تحقيق هذا اليوم. فلقد قال كل شيء كان قد أخفاه حتى الآن بداخله، ترك كل احتقاره يخرج فى موجات صاخبة وهادرة. ومن خلال عملية قتل العدو هذه، دعونا نخمن الهدف النبيل الذى يضطلع به، واجبه نحو الأحياء والإنسانية.

اقترب أكثر من المكوجى، التهمه بعينيه من خلال نظارته اجتهد فى أن يكون أكثر فظاعة مما هو عليه.

- لماذا آتى إليكم على الرغم من كل ما تصيبوننى به من أذى؟ سأخبرك

بذلك أيضا. فلتعرف أولا ، يا عزيزى حنفى، أن عندنا فى الإدارة، أرادوا أن يبدلونى الحى. لك أن تعرف ما بعد ذلك. بالقطع، أنا من لم يقبل. تمسكت بالعودة لهذا الحى. هل عملت فيه لفترة طويلة كى أتركه فى أيدى آخرين ؟ اسمعنى جيدا، يا حنفى، لقد اضطلعت بمهمة سامية، لقد تسلمت المهمة لإحيائكم مرة أخرى.

– ماذا، ماذا تقول؟

– اسكت، لا تتكلم؛ أعرف أنكم موتى. وأنا الوحيد الذى يشك فى ذلك. لذلك، ومنذ فترة طويلة، أعمل على بعثكم للحياة من جديد. لقد كان يلزمنى صبر هائل، صبر هائل جدا، يا حنفى، يا أخى. لأنكم موتى منذ قرون طويلة خلت. أه! لن تعرفوا أبدا كل معاناتى. لكن الله هو من أرسلنى إليكم. لإعادتكم للحياة مرة أخرى، لأنتشلكم من هذا الجهل. لأنكم لستم فقط موتى، بل أيضا عبيد مصيركم، راضون، وتائهون بلا عودة! أترى بالفعل أن لدى رسالة أستوفيها فى هذا الحي؟. مهما يكن اضطهادكم لى، سوف أتحمل معاناتى فى صمت. أحمل لكم الحرية والثقافة وتشكروننى بضربات ونكات. لا يهم! فليسامحكم الله. سوف أعلمكم رغما عنكم، أتفهم، يا حنفى، رغما عنكم.

يا لها من فكرة ثرية، يا له من عرض مذهل لفكرة خفية! بإعرابه عن طموحه الجامح، اكتشاف وجها جديدا، أكثر اتساعا، أكثر دقة من الوجه الذى كان يُعرف به حتى اليوم. بدا له أن نسب حلمه كانت قد تحددت بهدف اتخاذ إجراءات فورية. لم يعد هناك حدود لنموذجه الإنسانى. عاد بالذاكرة للمدرسة الابتدائية الوضيعة التى – وهو

صغير- كان قد تحصل فيها فقط أثنـــاء بضع سنوات، على كل المعرفة الضئيلة التى يمتلكها. وتذكر مُعلم المدرسة - شيخ بملابس رثة - الذى كان قد قال له ذات يوم، بعد الانتهاء من درس المطالعة: " أنت، سوف تصبح إنسانا عظيما". لقد قال ذلك الشيخ، ربما ساخرا ، ربما ضجرا، لكن زوبا كان قد صدق ذلك حقيقة مجردة. فطوال حياته، كان يفكر فى ذلك. والآن كلام الشيخ يتحقق.

- قال فجأة المكوجى :

- أنت لست زوبا، لكنى أعرف أنك: شيطان زوبا. يا زوبا المسكين.

- رد ساعى البريد :

- ربما، ربما، فقط، لا يجب أن تقول ذلك لأحد. أتفهم؟ السلام عليكم.

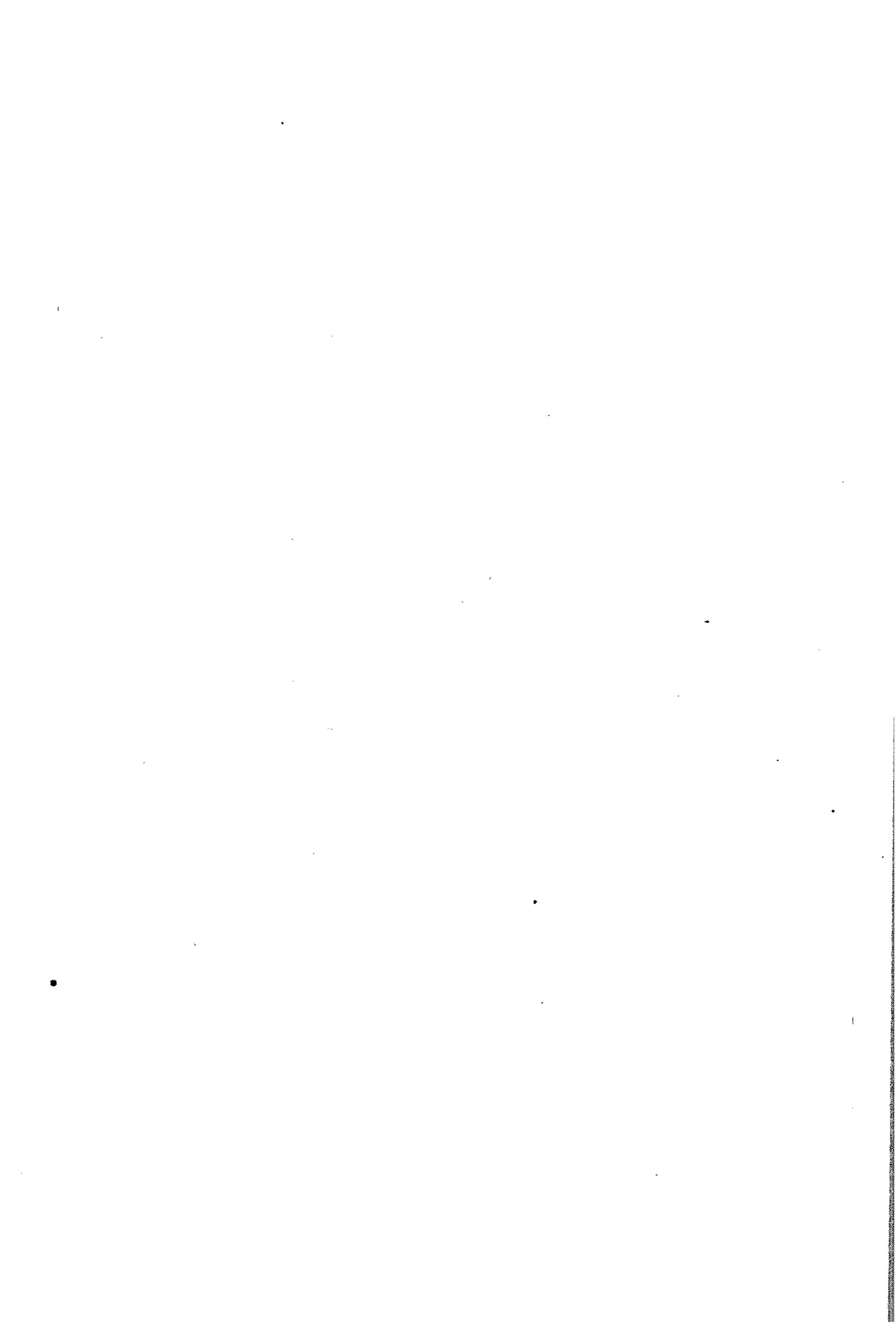
كان ساعى البريد يسير ليُنزه ظله المضحك بطول الشارع. وفيا بالتزامات مهنته بكل ضمير وشرف. من شرفة عالية، طفل كان يشعر بالملل رماه بحجر. وآخر يخرج من أحد مداخل البيوت، رفع مقدمة جلبابه وأظهر له قضيبه وهو يضحك. لكن ساعى البريد كان معتادا هذه الاعتداءات وواصل سيره بمهابة. كانت تتسلل أشعة الشمس بوفرة . تبدو كأنها تود تدمير كل أماكن الظل، تفرض نفسها فى كل مكان، فى الخارج، الداخل، على الرغم من الواجهات، تحرق المخابئ، الأماكن شبه المظللة، التى كان قد احتمى بها الناس للهروب من القتل الجماعى لأشعتها. حينئذ، تذكر حنفى كل ما قاله له ساعى البريد. ولم يستطع إيجاد علاقة بين كلام ساعى البريد والمسيرة العاقلة لأحلام يقظته. لقد كان زوبا وليد الواقع الحزين؛ وعن هذا الواقع الحزين، حنفى، لم يكن يود أن يعرف أو يفهم أى شىء. لا

تعول على هذا. فالواقع الوحيد الذى يعول عليه، الثدى المتعذر الوصول إليه، صلابة الأنثى. ردفها الكبير وبطنها العميق كالحلم الذى يولد من تدخين الحشيش.

كان يشعر بتعب شديد حتى يذهب إلى منزله كى يضرب زوجته. فبالأحرى كان يود أن ينام. " فيم يُستخدم هذا الدكان؟ ولماذا أعمل مكوجي؟ كذلك لماذا يريد هذا الملعون شنتوح أن يحجز علىَ؟ إنه قاطع طريق! فليأت ليحجز على ما يريد. لن أتحرك من هنا. فليذهب الجميع للجحيم! "متحررا من ملحقاته الدنيوية، استعاد نعاسه ، بالضبط حيث كان قد تركه، كما نستعيد عملاً انقطع. ازدهر الظل فى الدكان ، كما لو كان ينتظر توقف كل أشكال الحياة لينمو، فى الدكان الذى يشبه المخبأ الذى استولى عليه النعاس تدريجيا، ليأكل كل شىء بأسنانه غير المرئية كأسنان الفأر غير المرئية. والرجل المتساقط هنا لم يكن يعرف أنه سرعان ما سيلتهمه تماما على الرغم من بقائه على قيد الحياة، فسيلتهمه هو وحماقته وكسله وكل سكان الحى عن آخرهم.

فى مكان قريب جدا، فى حارة العُرجاء المسدودة، ثمة امرأة تشتم زوجها بألفاظ مصورة:" يا حبل غسيل، عديم اللون" ذبل الصوت، خنقته الحرارة. ترامواي، فى مكان ما فى شارع محمدعلي،كان يجرى على القضبان بصافرته الحزينة، يعلن عن محنة عالم بعيد. على جدار محل مبيض بالجير، لوحة شعبية تجسد ضفة النيل مع قارب يقف على النهر، ثابت كما لو كان لم يعد يريد التحرك، لكنه يظل هكذا للأبد، يخشى المجهول العريض والواسع. كان يبدو أن كل شيء، الحي، الكائنات والأشياء، قد تسمروا مثل هذا القارب المرسوم على الجدار، لا يريدون أن يفهموا أننا يمكننا التحرك؛ نأمل فى أهداف أخرى غير تلك التى تحققت من قبل ؛ نذهب أبعد على الطريق... وإن كان حماقة.

البنت والحشاش



لقد كان يسيطر تماما على فايزة ذلك الصخبُ المفاجئ لحواسها المضطربة. كانت تشعر نفسها تنمو، تتكاثر إلى ما لانهاية. كان يبدو لها أن حياتها تزدهر بينما حياة الرجل تسير فى غياب لا محدود. كمدينة امتدت، تتحرك بتكاسل فيها ؛ مدينة شرقية، بقصورها وأضوائها.

كان يظلل شهوتها إيقاع موسيقى بربرية. كإطلاق نار من إليتىّ راقصة جامحة، استغرقتها اللذة فى قفزات سريعة متوالية على نحو عصبى. أحكمت حولها أصوات أفاعٍ جرسية دائرة تُصَم لها الآذان. كانت تسمع عواء حشد من نساء تشير بإشارات حادة، كما فى هذه المهرجانات التى يُعَزّم فيها لطرد الشيطان. كل ذلك كان يحدث فى نقطة متطرفة ومؤلمة من كينونتها. لقد تجمد توترها فى انتظار التشنج. بدا لها أنها تعثرت فى جدار. فلقد اخترقتها فحولة الرجل كنصل. اندفاعه كان يشبه اندفاع نهر. أى نهر؟ نهر النيل الجبار بأمواجه الغادرة يتدفق فيها . لقد وجدت نفسها راضية فى حضن ضخامته. والماء المقدس يُخصب أرض متعتها. لقد ازدادت متعتها، ارتفعت كما ترتفع إحدى الموجات . امتزجت بالمتعة، أصبحت هى نفسها متعة.

كانا يتحركان، يتجاذب الاثنان عبر إيقاع نزق من الخلاعة. كـ" الساقية" التى تدور بقواديسها المتعددة، هما أيضا كانا يدوران فى قلب رغباتهما.

لقد اهتزت فايزة بجنون لا يسعه إلا أن يتزايد. يبدو أن تعويذة طرد الأرواح الشريرة تصل لعنف فريد. بداخلها شيطان يلهث، مهيأ للانقضاض كأنه يتأهب للصراخ. إنها بلهاء حيث تعتقد أنها فريسة لروح شريرة. كان ذلك أيضا رأى أهلها ولا سيما رأى أبوها، أبو عفان أفندى، موظف الجمارك . كما كانت تعتقد البنت أن الشيطان هو النار فى أسفل جسدها،

التى تلتهمها ليل نهار وأنها كانت تأتى كل مرة لتهدئتها عبر العناق العنيف لهذا الرجل الغريب والنائم.

جذب محمود نفسه بتمهل ليتحرر. انفك العناق، سقط من جديد فى سباته المعتاد. لقد صمت جسمه الفارغ . لم يعد يوجد بداخله إلا نعاس وبلادة غريبة. لم يكن يشعر مطلقا بمثل هذا التعب إلا بعد هذا الصراع. احتفظ بندمه لعرقلة حلمه بهذه المواقف المضنية. كان كل جسمه متمردا. يشعر بالحر. وهذه البنت التى بجانبه من تمنعه من النوم. إنها هنا الآن، تتنهد . آه! كأن كل ذلك يبدوعديم الفائدة.

– تمتم فى الفراغ :

– أولاد العاهرة، أولاد العاهرة.

لكن على الرغم من أن صوته كان خفيضا جدا، سمعت البنت الشتيمة. لقد كانت تسمعه دائما يتمتم كأنه فى حلم. إنها لازمته الأثيرة التى تخبر عن غياباته المتكررة. فكل مرة ، كانت تعتقد أنه انطلق فى رحلة إلى الجحيم.

– من هم أولاد العاهرة؟ من تشتم هكذا طوال الوقت؟

مال نحوها بنظرة ذابلة، ميتة تقريبا، يبدو متأملاً. لقد أزعج سؤال البنت اكتمال استرخائه. لم يكن يحب الأسئلة، ولا حتى الكلام البسيط الذى يتطلب إجابة.

– هل أعرف، قال، وصوته البعيد يبدو أنه يخرج من بئر سحيقة. كائنات، أناس، حيوانات، من يعرف؟ هؤلاء أولاد عاهرة ، أقول لك.

– ولكن أين هم؟ أخبرنى ، سألته– مرة أخرى – البنت المنزعجة.

كانت ممتقعة، عصبية من سماعه يتحدث بهذا الغموض الشديد. لم تستطع استخراج أى شىء منه مطلقا. فحديثه غير محدد الشكل ومفتق كأسمال شحاذ. لم تستطع إدراك المعنى الغامض والخفى من ذلك .

قالت وهى تمد يدا خائفة نحو الجسم الهامد :

– ولكن أجبنى إذن: أنت نمت؟!

نعم، لقد نام. وكانت تعرف أنه لم يعد بإمكانها أن توقظه الآن. حينئذ تركته هادئا وظلت شاردة للحظة. حاجة غريبة، لم تكن تشعر بأى خوف من وجودها بمفردها هكذا مع هذا الرجل فى حجرة البلكونة هذه، البشعة بشكل غريب. لم تكن تفكر فى اللحظة الحالية، ولا فى المكان الذى كانت توجد فيه. كانت تفكر فى كل ذلك الوقت الذى قضته فى السرير، تتصبب عرقا من السخونة وتهتز من الارتعاش. لقد كانت فترة ما بعد الظهر لا نهاية لها وأيضا لا نهاية لوجبة المساء مع العائلة مجتمعة. لقد هربت بمجرد أن نام والداها، ولقد ترنحت طويلا فى السلم المظلم لتصل إلى هذه الشرفة.

هو – فى البداية – لم يكن يود أن يستيقظ. لقد لزم عليها أن تشعل الشمعة بنفسها. ثم على المرتبة الفيبر العفنة الكريهة ، قد استسلمت للانزلاق بجانبه. خاضعة ، كانت تنتظر أن يضاجعها ، إن كان يود حقا خلاصها. حتى تنتزعه من ملله، أقدمت على مداعبات تنبت من داخل إدراكها الجسمى، تحت تأثير بعض التعويذات المؤذية.

تظن فايزة أنها تحلم . كل شىء من حولها يميل للحلم. لأنه، لو لم تكن تحلم، كيف تكون هنا من دون خوف؟ لا يمكن أن نكون خارج الزمن لهذه الدرجة إلا فى الحلم . ولا يمكنها تحديد الواقع إلا عبر الإطار الضيق الذى وصلت إليه الآن. فخارج الدائرة العائلية، كل شىء حلم. وذلك بالتحديد ما جذبها، وما شجعها على القيام بكل هذه الأمور المستحيلة.

وهذه الحرارة الخانقة، أهى أيضا حلم؟ لا، لم تعد تعتقد فى ذلك الأمر. رغما عنها يرفض عقلها البليد أن يلتصق وقتا طويلا باللاواقع. تفكر فى إيقاظ محمود.

من جديد تسمع الرجل المهتز بصوته الواهن، البعيد كأنه عبر عدة عوالم.

– أولاد العاهرة، أولاد العاهرة.

– ثانية، لم تنته من الشتيمة إذن. يالا، والنبى، اصح . لماذا تنام كل هذا الوقت؟ أخاف من بقائى وحيدة.

قال محمود ببطء :

– كل هؤلاء أولاد عاهرات، مرر يده على وجهه. لا، رحلوا... كنت أحلم تقريبا أننى كنت مطاردا بسرب من الكلاب . كان من بينها كلاب بيض وسود وأخرى كانت حمراء الوبر. هذه التى كانت تخيفنى خوفا شديدا... طفت بعدة أزقة ، تهت فى طرق مسدودة، لكنها كانت دائما ورائى بأسنانها الطويلة جدا. ربما كانت ذئابا ؛ لا أعرف . إسمعى، يا بنت ، ارحلى.

كان يتعجل رؤيتها ترحل ليستعيد بلا شاهد سباقه الباعث على الدوار عبر النوم. هذه البنت التى منحته نفسها لم تكن تهمه مطلقا. ما كان يهمه، هو، كُرية الحشيش الصغيرة، التى يمضغها المرء بتلذذ ليستخرج منها خلاصتها أو ينثرها من خلال الدخان الساحر لل"جوزة". بعد أن مارس معها الجنس ذات مرة كان فيها تحت تأثير المخدر الإلهى، لم يعد يستطيع التخلص منها. ومع ذلك لو تظل هادئة. لكنها لا، كان لديها بعض العادات المتخوفة والمثيرة للسخرية تغيظه. كان يود أن يخبرها عن النوم، أن تحترم النعاس، شقيق الموت هذا الذى كان يكن له مودة، إلى حد بعيد، ولكن للأسف! لم تكن تفهم شيئا. كانت عنيدة ككل البنات من نوعها.

منذ خمسة أيام، لم يكن لدى المسكين محمود ولو قطعة صغيرة جدا من الحشيش. إنه انتصار لا يضارع، يتخذه المرء بداية للتوبة لكن ما كان لا يجب، حقا، هو افتقاد هذا المعدن العجيب المسمى نقودا .

لم يكن يستطيع فهم الأهمية التى يوليها الناس لهذا المعدن الملعون، ولا لماذا هو موجود. لقد أوضح - بالفعل هذا الصباح للمعلم درويش، صاحب غرزة فى عابدين- اللا إنسانية فى طلب نقود من أناس لا يمكنهم امتلاكها فالضرورة المرعبة تقريبا عند محمود ليست فى افتقاد المخدر القدرى. لكن ابن العاهرة هذا لم يكن يود سماع أى شىء. كان يهز رأسه ويداعب ولدا يجلس بجانبه. فكل محدودى الذكاء يمنعونه من أن يحيا السعادة الوحيدة الحقيقية التى يجدها فى هذا العالم البائس. ربما كانوا هكذا آلاف الذين يضعون أنفسهم فى سبيل مقصده، يعرقلون مسيرته، من دون أن يتركوه لحظة فى سكينة. عندما يسير فى الشارع، لم يكن يتطلع فى أى شخص، فالعالم يصيبه بكثير من الاشمئزاز. كل هؤلاء الناس المنشغلين من حوله يقومون بتعب بلا معنى، مما كان يشعره بثقل على كاهله، يقيده بقوة.

- لماذا تبقى هكذا ناظرا فى الفراغ، تقول البنت التى لم تكن تشعر بعد باحتياجها للرحيل. كلاب بيض وسود، وأخرى حمراء، ماذا يعنى كل هذا؟ سوف أسأل أم حنفي، إنها تفسر الأحلام جيدا. لكن هل تحلم طوال الوقت؟ فى النهاية هل أنت إنسان أم شيطان؟ والنبى كيف تعيش؟

لم يُرد محمود أن يجيبها، لكن هذا السؤال الأخير أقلقه على نحو خفى. كيف يعيش؟ بالفعل غريب جدا هذا السؤال. يعى أنها يجب أن تحصل على إجابة، لكنه مع ذلك لا يستطيع أن يحسم الأمر . لا، لم يكن يعرف كيف يعيش. وذلك الأمر رائع جدا هكذا. كان سعيدا بعدم معرفته.

- كيف أعيش؟ وبم يفيدك هذا ؟ نعم ، أحلم طوال الوقت. أم حنفى التى لديك داعرة. لا تعرف شيئا على الإطلاق. كل النساء لا يعرفن أى شىء مطلقا. الكلاب لا توجد فقط فى الأحلام؛ الكلاب دائما خلفي؛ لا أستطيع الخروج من هذه الحجرة من دون أن تراقبنى وتتعقبنى؛ تتخذ ألف شكل

وتستحيل لكل أنواع الحافلات. فذات يوم سوف أموت مسحوقا. وسوف يدفنوننى فى فرن بلدى.

فكرة أن يدفن فى فرن بلدى لم تكن إحدى مزح الحشاش التى كان يعتادها. لا، كان يدرك ذلك؛ وفمه يبتسم عبر المنظر الناعس والكئيب لوجهه. فى الحقيقة كان يحدث له ذلك على نحو متكرر، تحت تأثير الحشيش، أن يحلم أنه موجود فى فرن بلدى. كانت الجدران يُسوّدها الدخان بشكل كبير والسقف يضيع عبر سماء ضبابية، وهناك على الأرض تلمع بلذة بعض قطع النقود فئة العشرين قرشا الجديدة تماما التى كان يشعر بمشقة فى جمعها. و فى إحدى الزوايا – حيث كانت تتصاعد أبخرة بيضاء – بُنية ذات أربع سنوت تقلد الرقص البلدى مع حركات فاحشة لراقصة مصابة بعاهة. وهناك فى زاوية أخرى نخلات قزمات كان يتدلى منها– بدلا من البلح – كل أنواع المجوهرات النفيسة. كان محمود يرى نفسه يجلس القرفصاء بجوار بائع تفاح يكرر بشكل لا نهائى: " أبيع نهود فتيات!" من مكانه كان يلاحظ المعلم الفران الذى يرص أرغفة خبز كبيرة من الذرة، بعد أن يخرجها من الفرن. وحينئذ يحدث الأمر الأكثر جمالا والأكثر أثرا. هذه الأرغفة الكبيرة التى رصها المعلم الفران كانت تأخذ مظهر لحم حى، ينتفخ، ينتفخ حتى يتحول لأرداف ملساء لسيدات ممتلئات وكثيفات الشعر. كان محمود مندهشا من هذا الازهار الخليع. ثم ، فجأة، من دون أن يعرف كيف، وجد نفسه فى حقل خالٍ ينمو فيه الحشيش بوفرة.

– فرن بلدى! من سيدفن فى فرن بلدي؟ هذا ليس حقيقيا، لا يدفن أحد فى هذا المكان. لماذا تحكى دائما حكايات من هذا القبيل؟ والنبى، أنت مريض! لا أعرف من كان يقول فى يوم من الأيام أنك تدخن مخدرا قذرا يجعلك مجنونا .لا، لم أعد أتذكر من كان يقول. ولكن يقال عنك مجموعة أشياء فى كل الحى. ارتجف عند سماع ذلك. أتمنى الموت فعلا.

– اخرسى، يا بلهاء، أخيرا نفد صبر محمود. هل انتهيت من إضجارى بثرثرتك الملعونة؟ ماذا يهمنى كل ما يحكونه عنى؟ هل أنا عذراء للزواج؟ كل ساكنى هذا الحى حمقى. بالنسبة للنساء، كلهن مومسات. لا يعرفن عمل شيء إلا الثرثرة عندما لا يوجد رجل لمضاجعتهن. كما أننى أود أن أبول على رءوسهم جميعا. المخدر الذى يجعلنى مجنونا، لم أشم رائحته منذ خمسة أيام. سينتهى العالم قريبا. إذا استمر ذلك عدة أيام أخرى، لن يعود هناك عالم.

– كيف لن يعود هناك عالم ؟ سألت الفتاة. كانت متحيرة بشكل ساذج.

– نعم، يا بنت، أقول لك ذلك، لن يعود هناك عالم. كيف تريدين أن يكون هناك عالم بلا حشيش؟ وسيختفى الحشيش من على الأرض. الله لم يعد يريد السماح بالحشيش. إنه كَعبُورالذى قال لى ذلك. ألا تعرفين كَعبُور؟ إنه رجل رائع. أتعرفين ما الذى بدأ يفعله منذ معرفته هذا الخبر؟ يجمع كل الحشيش الذى يقع تحت يده ويخبئه بحرص فى دكان عمه، الإسكافى. لكنه ابن عاهرة. كيف يخبئه. هل يُخبأ الحشيش؟

لم يصدق محمود قط الخبر الغريب الذى أخبره كَعبُور. فكرة الاختفاء الكامل للحشيش شغلته ليالى عديدة من دون أن يلمس أدنى أثر لها فى الواقع. لكن، الآن حيث لا يستطيع الحصول على المخدر المتمنى كثيرا، كان يتخيل أن المرسوم القدرى دخل حيز التنفيذ، وكان يستشعر لذة فى تصور نفسه ضحية من بين آلاف الضحايا الآخرين. هكذا تبدو له الكارثة أكثر احتمالا، بما أن طابعها كونى.

– هل يخفى المرء الحشيش، كرر. يلعن أباه! إنه لخسيس من يخفيه، فمن دون ذلك الأمر كان يستطيع تدخينه. فلا يمكن أن يكون لدينا حشيش

من دون أن ندخنه. فليسخطهم الله خنازير، كل أولاد العاهرة. أريد أن أدخن، يا بنت؛ يجب أن أدخن.

– هل حقا يجب أن تدخن؟ قالت البنت بهدوء. وكانت قد بدأت تتعب من كل هذه الألغاز. لماذا التدخين؟

– لماذا التدخين؟ لأنسى، يا بنت.

– تنسى ماذا؟

– أنت لا تفهمين إذن؟ نسيان كل أولاد العاهرات هؤلاء. كل الكلاب التى لا تتوقف عن مطاردتى بأسنانها الطويلة. النسيان، الهروب من السيارات، الترامواي، العربات وكل البائعين الذين يطالبونك بالنقود. آه! الهروب فى الفرن البلدي! ثم فى هذا الحقل المعجز حيث الحشيش ينمو بوفرة... مثل البرسيم.

توقف، مندهشا لكونه تحدث كثيرا. كما بعد مجون الحشيش، شعر بجوع لقطع الحلوى والفاكهة. أصبح الهواء ثقيلا فى الحجرة، بسبب الباب المغلق. من دون عنق الزجاجة، كانت ستذهب قطعة الشمعة ببطء للضياع. كانت ساقا الفتاة تلتصق بمحمود وخلال هذه الملامسة كان يشعر أنه يعيد تشكيل رغبته. يداعبها، كما هى الحال فى القوانين القدرية، فإليتاها موفورتان حتى الأفخاذ.

لم تعد فايزة تستلذ بمداعبات الرجل. لم يعد أى شىء يثير جسمها الشَبِع أخيرا. مات الشيطان هذه المرة، بالفعل مات. كانت مذهولة من ذلك الشعور. الاسترخاء يقتحمها من كل مكان، كريح منعشة، تُهوىّ لها، تهدهدها، تذهبها فى النوم. من حولها كل شيء يأخذ مظهرا بعيدا، غير قابل للفهم. تقف نصف وقفة، تبحث فوق المرتبة عن ثوبها المكرمش تماما الآن وترتديه من دون تعجل. تقرر بحزم، أنها تريد الرحيل.

- هيا، انزلى واتركى لى الهدوء، يقول ثانية الصوت الغريب للرجل. بسببك، لم أعد أستطيع النوم. والله، لا أدرى من ألقانى على هذه الشرفة. ملعون اليوم الذى أتيت فيه لأسكن هنا. لكنه بسبب حظى المقرف. من قبل كنت قد سكنت فى بدروم أحد المنازل التابعة للأوقاف؛ لم يكن يطالبنى أحد بنقود إيجار. بالقرب منى كان يسكن أيضا رجل يعمل مشعلا للمصابيح متزوج حديثا. لكن ابن الكلب هذا، عندما كانت تتملكه الرغبة، كان يذهب ليضاجع زوجته، تاركا شوارع الحكومة مستسلمة للظلام. لقد فُصل بعد بضعة أسابيع. حينئذ بدأت زوجته فى الانتحاب ليل نهار، وكانت تمنعنى من النوم. ولذلك رحلت. لا يتركوننى فى سكينتى أبدا فى أى مكان. آه! إلا إذا كان معى حشيش. لكن لا، لم يعد هناك حشيش والعالم سوف ينتهى...

للمرة الأولى منذ أن جاءت إلى هنا، تشعر فايزة حقا بالخوف. كانت تود الرحيل لكنها لم تكن تستطيع. استرخاء عظيم كان يسمرها، العيون الزائغة على كل شىء وعلى لا شىء. لهب الشمعة، المقارب على الانطفاء، كان يُحدث دخانا أسود يتصاعد للسقف، كشعرة دقيقة. بالقرب من كتلة من القمامة، إبريق من الفخار يقف منتصبا، كارثى القذارة يشبه تهديدا متفاقما. تذكرت فايزة حنفية المطبخ التى تلفت وحوض المطبخ الذى لا بد أنه فاض وسال على البلاط الآن.

حاولت أن تقوم لتذهب حتى توقف هذا الماء الذى كان يعرض المنزل لخطر الغرق. لكن كيف تنتزع نفسها من هذا الرجل النائم؟ كيف تتركه وحيدا يجابه الخطر الحاضر للأشياء. ما دام أنه نائم، لم تكن تستطيع تركه لمصيره. كانت تشعر أنها مربوطة به حتى فى نعاسه.

كان جسم الرجل العارى يتماوج تحت ضوء الشمعة المرتعش. كانت البنت تتأمل هذا الجسم النحيل والعصبى حيث تتراقص انعكاسات

بنفسجية، وهذا المنظر يمدها برضى على نحو غريب وكامل. مدت يدها لتلمسه؛ وجدته ساخنا كمدينة فى عز الظهر. حمل بداخله حرارة كل النهارات الساخنة. إنه رمل حارق. لقد مالت فوقه كأنها تميل فوق صحراء.

كانت مرتبطة بهذا الجسم حيث تتسرب الأنهار برقة حيوانية وبدائية. تشعر بحضوره فى كل مكان من جسمها. كان أقوى من كل شىء. أكثر قوة من المنزل بأساساته المغروسة بقوة فى الأرض. أكثر قوة من الريح المندفعة فى الأبواب. أكثر قوة من التيار المجنون للنهر وقت الفيضان.

كانت تشعر بالعطش. لم تكن تعرف ما هى طبيعة هذا العطش. مالت على جسم الرجل العارى وقبلته. الآن تفهم ماذا كان يمثل لها هذا الرجل. لم يكن هو، الشيطان. الشيطان هو كل ما كان يفصلها عنه. الشيطان هى كل الساعات التى مرت بعيدا عنه؛ إنها الحجرة الحزينة التى كانت تعيش فيها: إنهم أبواها بخرافاتهما البلهاء وأحكامهما المسبقة الوضيعة، التى تحتفظ بها سجينة. لا، بالتأكيد لم يكن هذا الرجل شيطانا. بل على العكس، كان يمثل موت الشيطان. كان السعادة، السعادة السامية للجسم الحى الحر.

أصبحت متفهمة وواقعية. وهكذا اكتشفت الحقيقة القوية للجسم. فى الوقت الراهن ، كان يبدو لها الرجل طفلا صغيرا ومريضا حيث أرادت أن تداعبه وترفق به كأم. آه! تستطيع أن تعطيه كل شىء، حتى يكون سعيدا.

– تقول، إن العالم لن ينتهى أبدا.لا تخف. فلتبقينى بجانبك فحسب. وبما أنك لا تستطيع العيش من دون حشيش، فسوف أحضره لك. فليسامحنى الله.

لم يكن يسمعها. كان بعيدا.

كان فى هذا الحقل الذى ينمو فيه الحشيش بوفرة كالبرسيم.

الحلاق يقتل زوجته



كان فى الزقاق المظلم

فى ذلك المساء، شاكتور السمكرى، الذى كان يعمل فى دكانه على تجهيز إبريق مرحاض، ترك شغله للحظة، ليستجمع نفسه ويفكر بهدوء فى حياته البائسة واللانهائية. لكنه لم يذهب بعيداً فى تأملاته المريرة. فكل حياته كانت هنا، بالقرب منه وكان بإمكانه أن يلمسها بيديه، كما كانت كئيبة وقذرة، بلا طرف من حلم. كان شديد الاشمئزاز من ذلك لدرجة أنه فكر فى شىء آخر.

بداية، حاول أن يفهم كيف أقدم سعدى - الحلاق المتجول - على تسميم زوجته. (فى هذه الفترة كان هذا هو الشغل الشاغل لعقول الزقاق) لكن تفاصيل هذه الجريمة الغامضة كانت مفقودة بالنسبة لهم ولذلك وجب الاستسلام لفكرة التخلى عن الأمور الجزئية. على أى حال هذه القضية كانت غامضة لدرجة أنه من الأفضل عدم التعرض لها، حتى بالتفكير. أيمكن القول أن البوليس كان قد اعتقل بعض زبائن التعس سعدى لاستجوابهم ولتحديد مسؤوليتهم الأخلاقية وفقا لدرجة العلاقة التى كانت تربطهم بالحلاق؟ حتى إن كلام أحدهم - حاروسى مصلح الشعب - قد وجد مملوءا بالشكوك. لقد قال هذا الوغد المصلح، على ما يبدو، ذات يوم، للحلاق المتجول: " سعدى، يا ابنى، الرجل الذى يستطيع التخلص من زوجته سيدخل بالتأكيد الجنة." بلا شك هذه الكلمات الحكيمة تماما كانت قد فُسِرتْ على نحو خطأ من الحلاق. على أية حال لم تكن تريده الآن أى جنة، والبوليس وجد نفسه هكذا مضطرا للاحتفاظ به فى أى سجن ، تماما كأى قاتل همجى. "مسكين يا سعدى، كنت تحلق لى لحيتى بشكل رائع مقابل قطعة الخبز التى كنت أعطيها لك. كيف سنصبح لو أن كل الرجال مثلك ذهبوا للسجن؟" لم يعرف شاكتور السجن قط. حينئذ كان يفكر فى نظام السجن، فى المعاناة التى يتحملها السجناء، ولا سيما فى وحدتهم الجسمية.

لكن مرة أخرى لم يكن لديه أية فكرة محددة. توقف خلال استنتاجاته الخيالية ونظر للزقاق.

قبالة الدكان، المصباح رقم ٣٢٩ كان يبذر فى ضوئه الرسمى عبر كل الزقاق. فى بعض الأحيان، كان يتوقف أحد المارة غير واضح الوجه فى منطقة الضوء ليتبين حالته قبل رجوعه لمنزله، أو كان ينظر للمرة الثانية على الأقل فى قطعة نقود مزيفة أعطاها له صاروخ صاحب المقهى. كما كان يتسكع فى الزقاق بعض الكلاب، الجائعة ، كهياكل عظمية ومصونة بالجرب. ودائما كانت هناك امرأة ما تلعن أطفالها بصوت عال ومصم للآذان، حتى إن كل الزقاق سمعها، وبعض الأشخاص بسوء نية يتنبأون أنها تهتم بتربية أولادها. أخيرا، وفى كل مكان تقريبا، من دون تفضيل، كانت تستقر القمامة.

ويل للفقير الذى لديه أوقات فراغ. لقد عاود شاكتور العمل عندما لمح الطفل. هذا الواقف عند مدخل الدكان، حاملا تحت ذراعه حزمة برسيم كان قد اشتراها للتو من السوق. وكان ينظر لأبيه على نحو فيه لوم عبر عينيه الحزينتين، كأنه يذكره بشىء ما خطير لم يكن يتذكره الرجل.

– ماذا تحمل لى معك، يا صغيرى؟

– إنه للخروف ، يا أبى.

– أى خروف؟

كيف لم يكن يفهم إذن؟ كان الطفل يتأهب للبكاء، لكنه حبس دموعه ووضح كل شىء لهذا الأب المخبول من الفقر، عبد القدرية الصارمة والقاسية.

– خروف العيد، يا أبى. عالجت أمر البرسيم. الآن لم يبق لك إلا أن تشترى الخروف.

كان الطفل متسخا، لكنه جميل. كان عاريا فى الأسفل من ردائه ذى اللون الترابى. يرتدى حزنه فى كل جسمه.

نظر شاكتور لابنه باندهاش مشفقا. لم يقل شيئا. داخل عقله المعذب بلا توقف، لم يعد هناك مكان لألم جديد. ببساطة ، كان يشعر بالانسحاق من حركة ابنه؛ لأنه كان يدرك الآن أن داخل هذا الطفل – لحمه ودمه – كان يتشكل بؤسا واعيا وواقعيا لم يكن لاحظه حتى ذلك الحين ومن الآن فصاعدا سوف يكون مرتبطا ببؤسه. إلى متى ؟ سيكبر الطفل وسينمو معه بؤسه، حتى اليوم الذى يضعف فيه بدوره – لأنه هل يستطيع إنسان ما أن يتحمل (بمفرده فقط) بؤسه؟ – سينجب طفلا يتقاسم معه العبء. العزاء الوحيد للفقير ألا يترك عند موته طفلا مسرفا. فالعار الذى يتركه لذريته لا ينضب.

– العيد ليس لنا، يا بنى، نحن فقراء.

بكى الطفل، بكى بمرارة.

– لا يهمنى؛ أريد خروفا.

كرر شاكتور :

– نحن فقراء .

– ولماذا نحن فقراء؟

فكر الرجل قبل أن يجيب. هو نفسه ، بعد الكثير من سنوات العوز الملاصق ، لم يكن يعرف لماذا هم فقراء. ذلك منذ زمن بعيد جدا ، بعيد لدرجة أن شاكتور لم يكن يستطيع تذكر كيف كان قد بدأ ذلك. كان يحدث

نفسه بأن – بلا شك – بؤسه لم يكن له بداية مطلقا. إنه بؤس يمتد فيما وراء البشر. لقد تناوله منذ ولادته وتعلق به فى الحال. من دون أدنى مقاومة، بما أنه كان موعودا له فعلا قبل أن يولد، وهو لايزال فى بطن أمه.

الطفل لايزال منتظرا أن يوضح له لماذا هم فقراء. لقد توقف عن البكاء، لكن لايزال بداخله الكثير من الدموع، كل دموع الأطفال الفقراء حيث الأحلام غدرتها الحياة.

– اسمع، يا صغيرى، فلتذهب لتجلس فى ركن واتركنى أعمل. لو أننا فقراء ذلك لأن الله نسينا، يا ولدى.

– الله! ومتى سيتذكرنا الله، يا أبى؟

– عندما ينسى الله شخصا ما، يا بنى ، ذلك للأبد.

– ومع ذلك سأحتفظ بالبرسيم، قال الطفل. حمل حزمته من البرسيم، ووضعها فى ركن من الدكان، ثم جلس متربعًا فوقها. وانخرط من جديد فى البكاء، لأنه كان صغيرا فهذه كانت طريقته فى الثورة ضد ظلم العالم. فجأة، عرف الطفل أنه كان وحيدا فى الحياة وفجأة لمس الأمور المجهولة للكرب، للكرب الإنسانى المستحق الرثاء.

عاود الرجل العمل. منظر الوجه الصغير تنهبه الدموع أصابه بالألم. كان يعانى بطريقة مرعبة وجديدة. ولكن من يهتم بألمه وألم كل بشر الكون. كان الأمر المهم أن الطفل لا يعود للمعاناة . أدرك بشكل متزايد هذه الحقيقة الجوهرية. الطفل! من سينشغل بإنقاذ الطفل؟ كان الرجل طوال عمله يفكر فى الموت بأنه الخلاص الوحيد والممكن، وكان يشتهيه بشديد الشوق له، لزوجته، لطفله ولكل الزقاق.

فى هذه اللحظة مر العسكرى جُحلش بصلف وتكبر كالعادة.

توقف أمــام الدكــان وجــال بنظره اللعين على الرجل وولده. لقــد ولد العسكرى جُحلش جلادا. ثمة غباوة مهلكة فى نظرته. وظل هناك واقفا، متدثرا فى سترته العسكرية السميكة المصنوعة من الصوف الأسود، يشبه حيوانا عفنا وقويا. كان الجو باردا. توقف الطفل عن البكاء؛ انتابه الخوف. هذا العسكرى، الذى انبثق كظلام فوق الظلام، كان يخيفه. كان يشعر بالاختناق. تذكر أمه. كان يرغب فى بعض الدفء. أغلق عينيه، معتقداً هكذا أنه يهرب من المصير المظلم الذى يهدده فى الخارج. حزمة البرسيم، تحته، كانت تنبسط برفق. بعد لحظة، تراءى له خروف جميل وسمين لا يخص أى شخص ، خروف طليق كالكلاب والقطط التى كانت تتسكع فى الزقاق.

احتفظ شاكتور بصمت ملغز. على ما يبدو كان يجهل وجود العسكرى. لم يزل متضايقا بخصوص الحلاق المتجول. " لماذا سمم سعدى زوجته؟" كانت تقلقه هذه المسألة كما لو كانت مصدر كل آلامه. كانت قد عرفته جريمة الحلاق المتجول إلى أين كانت تستطيع يد الإنسان الذهاب. إنه لأمر مذهل ما يستطيع الإنسان ارتكابه. " ها هو الإنسان يقتل زوجته. لكن لماذا؟ سعدى لا بد أنه يعرف لماذا. ذات يوم ، سوف أذهب لأزوره فى السجن، وسوف يخبرنى بذلك. " الآن لم يعد يفكر فى أى شىء. كان ينتظر. العسكرى جُحلش أيضا كان ينتظر لا نعرف ماذا. فى ركنه، الطفل ، الجالس متربعًا على حزمة البرسيم، كان يبدو ميتا. انزلق فأر بطول الجدار. أراد العسكرى التحدث، لكنه شعر فجأة بضعف شديد كما لو كان استنشق رائحة مثيرة للغثيان. كان بسبب هذا الحزن الذى يسيطر على الدكان والذى لم يكن فى مستوى البشر. كان لا يزال المصباح رقم ٣٢٩ يبذر فى ضوئه من دون الاهتمام بالمصروفات .

استجمع العسكرى جُحلش نفسه بأسرع ما يمكن، لم يكن عاطفيا. وضع ضعفه على حساب تعبه. لقد خاض - ليلة أمس - معركة مع فرقة من كناسى الشوارع الذين كانوا يطالبون بكل بساطة بعدم الموت من الجوع. تدخله في هذه المسألة كان قد أُعتبر فى دائرة المناصب العليا أمر يستحق كل الثناء.ألم يقم - بمفرده - بضرب عدد عظيم بالهراوة من هؤلاء الكناسين المناهضين؟ ليس هناك شيء أفضل يمكن أن يحدث له. كان فى الأمام بحق. لماذا إذن كان يكدره منظر هذا الدكان لهذه الدرجة؟ لم يكن يفهم. حينئذ أصبح شريرا. طاردت عيناه كل الدكان بإصرار، اكتشف حزمة البرسيم. أظهر ابتسامة كانت كصدى لبلغم مجهول الاسم .

- إذن يا شاكتور، يا والدى ، اشتريت البرسيم لتوقع الخروف فى الشرك؟ أتعتقد اذن أن خروفا ما سيتركك تمسك به كفأر؟ بشرفى ، لقد أصبحت خرفا، أيها الرجل.

كدر صوته صفو الصراصير التى كانت تجول بهدوء فى الدكان؛ انتقلت إلى جحورها بسرعة. كانت تلمع فى الظلام عدة أوانٍ متصدعة مصنوعة من الصفيح. لم يكن الدكان مضاء إلا بالمصباح الذى كان فى مواجهته . العسكرى، المتوقف أمام الباب، كان يشق هذا الضوء الفريد الذى كان يتسلط على ظهره. لم يزل شاكتور صامتا ، لم يكن يود الدخول فى حوار مع هذا العسكرى المخيف حيث كان يعلم شره . فقط كان يمنعه هذا الظلام من العمل. كان يود أن يصلح إبريق المرحاض هذا بأسرع ما يمكن ثم يستطيع العودة لمنزله. كان البرد قارسا فى هذا الدكان، خصوصا بالنسبة للطفل الذى كان عاريا أسفل ردائه . كل ذلك كان يبدو لـ شاكتور رعبا لا يمكن احتماله. لم يعد لديه أى شيء من الشجاعة؛ كان يشعر هذا المساء

بثقل كل حياته. قصة البرسيم والخروف هذه كانت فى الحدود التي كان يمكنه احتمالها. كان الرجل يفكر بشكل خاص فى الطفل. بالنسبة له، ذلك لم يعد له أى معني، العيد. " نتحدث عن العيد، لكن فى الحقيقة ليس هناك عيد. لماذا سمم سعدى زوجته؟ هذا ما كان يجب أن يفكر فيه الناس. لن يكون هناك عيد طالما لم نعرف لماذا سمم سعدى زوجته." من جديد تتسلط عليه جريمة الحلاق المتجول. الرجل الواصل لنهاية الفقر كان يحاول أن يفهم. وكان الأمر جيدا هكذا.

– قال العسكرى :

– يا ابن الخنزير، أتمتنع عن الرد علىّ؟

أدرك السمكرى ضرورة إبداء التصالح مع هذا الشبح الملعون للسلطة. كان لديه ما يكفى من الضجر هكذا. للحظة تأمل العسكرى بشىء من الشفقة، ثم قال بلغة سليمة ومحترمة:

– نحن أهلك، أيها العسكرى جُحلش. اسمح لى أن أقول لك إن حضورك المهيب قد جعل لهذا الدكان المتواضع قيمة عالية.

هذه المجاملة، المتدفقة بصوت محزن، جمدت المحيط كفانتازيا كئيبة. كانت شخصيات المشهد الثلاث موجودة فى هذه اللحظة من الحياة حيث لم يعد المرء يؤمن بأى شىء .

كان العسكرى جُحلش يجسد الشر البغيض لأقصى حد: الشر فى خدمة كبار الأرض. شر يباع. لم يعد مملوكًا له. باعه لأناس أكثر قدرة يستخدمونه فى استعباد وإماتة كل شعب بائس. لم يعد سيد ش ره. كان لا بد قيادته وتوجيهه وفقا لبعض القواعد حيث الوحشية لا تتغير أبدا .

كان العسكرى جُحلش يسكن فى الزقاق المظلم، لكنه كان يمارس سلطاته الاستبدادية فى وسط المدينة الأوروبية. وكان ذلك بالنسبة له نوعاً من الموت؛ يعانى من فقر الدم. لأنه – فى بيئة مماثلة – يرتادها – بشكل عام – الأوروبيون، نوبة حراسته كان يقابلها معوقات عنيفة. لم يكن من

الممكن أن تتطور على نحو مريح. كان ينقل جُحلش إذًن كل كراهيته على كل ما كان يمده به موطنه الأصلى من عبيد: الباعة الجائلين ، الشحاذين، الصغار جامعى أعقاب السجائر، المصابين بالجذام، العميان، وكل عشيرة الهائمين الذين لم يصلوا للموت لأننا أمهلناهم الكثير من الوقت حتى يقتلوا. هذا الهوام، الآتى هنا ليعطى المدينة الأوروبية خاتم الشرق متنافر العناصر، كان كبيرا. غذاءً مباركا لعيون السائحين. ولكن العسكرى جُحلش، لم يكن سائحا، ولم يكن يفهم شيئا فى النزعة الغرائبية.

كان الوقت تقريبا منتصف الليل. المدينة الأوروبية ، على الرغم من أبنيتها الحديثة ذات الطوابق الثمانية (بمصعد وماء جار)، مقاهيها المضاءة بشكل كبير، داعراتها المضجرات أرصفتها بروحاتهن وغدواتهن، كانت تبدو فريسة لضجر كئيب، غير منتهٍ، ولدته الريبة ووضاعة الملذات. كنا نشعر أن المدينة كانت تود الحياة، وأنها كانت تملك كل شىء من أجل ذلك، ولكن نوعا من الضيق الداخلى ، عديم الرحمة، كان يبقيها جامدة بأضوائها القوية ، نسائها الغبية ورفاهيتها المجرمة. كان لديها بلادة وحش متخم كاملة. كانت تلتهم كل شىء. تتمدد فى غضب مستمر. كنا نراها تأتى من كل مكان. تنمو فى الصحراء؛ تنمو فى البساتين. إنها أزهار العقارات الاستثمارية والفيلات الفخمة. جسم غريب لعاهرة؛ إنها تتمدد فى كل الاتجاهات، مرتزقة دائما، دائما مثيرة للاهتمام. والمشهد يفلت من أمامها، سريعا ورتيبا. كانت تطارده بلا انقطاع. ملعون المشهد الذى كان سوف يتجشأ حزنه على تخوم أحياء الفقراء. لأن هناك – حيث الفقر أشد كثافة – المدينة توقف مسيرتها المظفرة. لا تضاجع إلا المناطق الجميلة .

كل ما يجعل الحياة مريحة وناعمة ينتمى لها. الهواء النقى، الماء النظيف، الإضاءة الكهربائية ، كل ذلك يخصها. لقد احتقرت بعض التجمعات الكبيرة. وفى هذه التجمعات الكبيرة كانت تنحط حياة كل شعب.

أصبحت الحضارة مرعبة بشكل خاص بطول شارع فؤاد الأول وشارع عماد الدين. فى الحقيقة، هذان الشارعان ينعمان بكل الذى تحافظ عليه وتُفْرِط فيه مدينة متحضرة من أجل البلاهة البشرية. هناك بعض المشاهد السخيفة ، بارات حيث الكحول باهظ الثمن ، كباريهات حيث الراقصات متاحات، محلات للموضة، محلات جواهرجية ، أيضا إعلانات مضيئة. لم يكن ينقصها أى شىء فى العيد. إنه التوحش على مدى البصر.

ومع ذلك ، كانت المدينة تزخر بحشد من المخلوقات ، التى لم يكن بينها أى شىء مشترك مع هذا الاضطراب وهذه الأضواء. كانوا يمرون بالقرب من كل هذه الأضواء كظلال خائفة. ينظرون لكل هذه الأشياء الجميلة فى المدينة بعيون حيوانية غير واعية. يحملون معهم أحياءهم الموحلة وبؤسهم القذر. يُرَوْن كجروح. كنا نطردهم ، لكنهم أصروا على البقاء. لا بد أن سببا كافيا وقويا جذبهم لهذا المكان المسور السحرى : الجوع . إنه الأمر الذى كانوا يفهمونه جيدا . كانوا كثيرين، حول المطاعم، من كل الجهات حيث يأكل الناس . بالنسبة لهم، الطعام يمثل كل شىء. لا يشتهون أى شىء آخر. منذ عدة أجيال ليس لديهم أى رغبات أخر. إنهم أجسام حقيرة بلا روح. كانت المدينة تتألم من وجودهم؛ الحضارة تتألم من رؤيتهم. كانوا أشبه بوخزات ضمير؛ وخزات ضمير قديمة جدا متجذرة فى الأرض. لكن ، رغم كل شيء، لا يودون الموت. إن تسول لقمة عيش من هؤلاء الذين سلبوهم كل شيء لم يزل يمثل بالنسبة لهم فرصة للحياة. وكان يطلق عليهم شحاذون أو لصوص حسب إصرارهم على الحياة.

فى الوقت الراهن، كان ذلك يحدث على قمة شارع فؤاد الأول، بالضبط بالقرب من محل أحذية للسيدات. يستريح فريق من كناسى الشوارع فى هذا المكان، منتظرين قدوم أحد الزملاء الذى كانت مهمته الإعلان عنهم. ينضمون على بعضهم البعض ليس من أجل تدفئة بعضهم بعضا بقدر ما كان من أجل إحداث أقل مضايقة قدر الإمكان، وألا يصدم شرفاء الناس وجودهم. كناسو الشوارع هؤلاء كانوا يمثلون - بما لديهم - الأكثر بؤسا فى العالم. عادة كانوا صموتين ومنغلقين ، لكن فى هذا المساء شعرنا أنهم يحيون بشكل غير عادى وتراجيدي. حمية من نوع فريد تجعلهم يتحركون ويتحدثون بقوة. كانوا حقا أشبه بالبشر؛ لكننا كنا نرى أن ذلك لم يكن أيضا سوى بداية. هناك الكثير من الأمل أن يصبحوا بشرا بالفعل. ظهرت إرادة الثورة بداخلهم كمرحلة بلوغ جديدة. وهذه المرحلة من البلوغ جعلتهم للمرة الأولى مهمومين بحياة أفضل. لم يكن لديهم معرفة إلى أين ستؤدى بهم هذه الإرادة. الطريق إلى الأمام كان طويلا جدا، وكانوا يرتجفون على عتبة طريق كهذا، لأنهم عاشوا طويلا من دون حركة، كانت سيقانهم رخوة وأعينهم مكفوفة من الظلمات.

إنهم هناك، متناثرون على الرصيف، مثل الناجين فى بلد اجتاحته المجاعة. يرتدون زيا موحدا جديدا لكنه لا يتناسب مع الفصل المناخى الحالي. زيا خفيف النسج حيث الإدارة، المكلفة بكسائهم، كانت قد منحتهم إياه فى عز شهر ديسمبر. بعضهم كان حافيا. كان البرد يخترقهم بكل سهولة، يسعلون كلٌ بدوره، كل منهم بطريقته. فى بعض الأحيان كان أحدهم يشعل النار فى ورقة حيث تشتعل وسرعان ما تنطفيء، بعد أن نشرت حرارة عابرة. حينئذ، حول هذا الوميض النحيل، كانت وجوه هؤلاء الرجال يتضح عليها العنف. تبدو على وجوههم إنسانية مخيفة. عند رؤيتهم

متجمعين هكذا فى وسط هذا الشارع النظيف والمتحضر، كنا قد هممنا بطلب المساعدة. لكن اللامبالاة التى تحيط بهم كسرتهم تماما. كانوا بمفردهم ضد السلطة التى لا تقهر التى جعلت منهم عبيدا. بانتزاعهم من أدوارهم كمخلوقات إنسانية، هذه السلطة كانت قد ألزمتهم حدودهم. لم ينتظروا مساعدة أحد، لم يسمعوا لأى صوت غريب. فقط سمعوا الشائعة التى لا تزال غير مؤكدة عن ثورتهم.

يبدو أنهم كانوا يتآمرون ضد أنفسهم، حتى إن اجتماعاتهم التشاورية تتسم بالحذر والعناء. يتقدمون فى ثورتهم بكل تردد. يحكون أجسامهم بحركات واسعة ويبصقون نزلاتهم الصدرية بالقرب منهم تماما، برقة، كشىء نفيس جدا. لقد تأذى بالفعل الشارع الجميل فؤاد الأول الواقع فى هذه المنطقة فى سمعته. قطيع الكناسين هذا لم يكن فى حالة رضا كبير كان بالأحرى فى حال كآبة. يود الشارع لو يتخلص من هذا العفن بأى وسيلة: كنا نشمه منزعجين فى كل تظاهراته. عدة ترامواىات ثملة جعلت الجو صاخبا. نشب شجار فى مقهى يقع فى الجانب الآخر من الشارع. أما بخصوص المومس التى جددت تجميلها للمرة السادسة تلك الليلة، تركت أحمر الشفاه يقع فى جدول الماء. تلاميذ صغار من "مدرسة المتسولين" جعلوا الحياة مستحيلة بالنسبة للمتجولين الليليين. بعض الأتوبيسات كانت تسير بسرعة دامية فى نقل بضاعتها من المخلوقات الوسخة والأحلام المتعفنة. فى الجو، ثمة احتياج ملح للاسترخاء؛ لا بد أن يهلك هؤلاء البشر. المدينة تطالب بموتهم حتى تستطيع التمتع بسكينتها المشينة فى سلام.

لم يكن لدى الكناسين أنفسهم الوعى بالتشتت المرعب الذى ألحقه وجودهم بالشارع. كان لديهم نظام فى كنسه فحسب وكان يُحدث فيهم أثرا بشىء من الخطر وعدم الفهم ومن ثم كانوا خدما طيعين. ما كانوا ليتخيلوا

أبدا حتى ذلك الحين ما كان سيصبح عليه من دونهم، متروكا للزبالة والتراب. إنهم لا يعرفون كل استحقاقهم وإلى أين كان يلزمهم الشارع بروشتة جماله وتميزه. ولكن، فى هذا المساء، قد حسموا أمرهم تماما - فيما يخصهم - ألا يموتوا من الجوع. للمرة الأولى فى حياتهم، كان قد تجرأ هؤلاء الكناسون ، وقد وثقوا بقدرتهم على التجرؤ، بحركة احتجاجية. كانت لديهم فكرة لا تصدق، تجديفية، المطالبة بحقهم فى وجود أفضل. القروش الثلاثة التى يتقاضونها يوميا لا تكفيهم فى إعاشتهم، ولا حتى فى جعلهم يموتون. كانوا قد طالبوا إذًن بنصف قرش زيادة. بثلاثة قروش ونصف يوميا، كانوا يعتقدون فى إمكانية معيشتهم بصورة أكثر وقارا. إنها فكرة بالنسبة لهم، مثالية تقريبا. كانوا ينتظرون تحقق هذه المثالية، من دون الكثير من الثقة ولكن بوميض عنيف فى عيونهم. وصول الملاحظ على الدراجة كان سيضع نهاية لتشككهم. هذا الملاحظ على دراجته المكلف بتقديم طلباتهم لمن له الحق ، يجب أن يحمل لهم الرد هذا المساء . لكن الكناسين لا يثقون به ، لأنه ينتمى بالفعل - بدرجته الوظيفية كملاحظ - لإنسانية أخرى، إنسانية الطغاة. لقد قرروا أيضا أنه - فى حال الفشل - سيتركون له الزي، المكانس ، كل الشارع.

- سوف يكنسه بمفرده، ابن المومس هذا، قالها رجل قوى البنية وهو ينهض بزيه الغريب الذى يبدو تحديا لجماليات سكان المدينة المبجلين.

هذا الكناس لم يجد شيئا أفضل يفعله- ليعترض على الزى الخفيف - إلا أن يلف نفسه بـ" ملاية" زوجته. لقد حصل على نجاح واسع من جانب زملائه الذين يسمعونه الآن كقائد. الحق يقال، هذه الحال الذهنية الجديدة للكناسين يلزمها الكثير من الجرأة الفائقة لهذا الرجل. إنه رجل فعلٍ يحتقر كل أشكال السلطة، حيث الفقر المدقع قد علّمه أن يصنع بنفسه العدالة. كل

منهم بداخله يطالب بحياة أكثر صلابة، فالمرء يشعر بداخله بوعى أكثر وضوحا بمصيره ومصير رفاقه. بالتأكيد هو الوحيد الذى كان يتحرك على راحته خلال الاحتضان القاسى لهذا المصير. لقد وضع هؤلاء الرجال المرعبون أملهم فيه، لأنه بدا لهم يحمل فى يديه القويتين القوة التى تدمر الجلادين. "ها هو قادم"، قال. ينزع ملايته ويلفها حول جسمه، كحزام عريض. كان يود أن يكون حرا فى تحركاته، لأنه كان يشعر بقرب المعركة.

فى الحقيقة، وصل الملاحظ على دراجته على رأس فريق الكناسين الآخر. توقفوا أمام محل الأحذية. طالب رجل الملاية زملاءه بالنهوض، ليذهبوا لمقابلة الملاحظ. ها هو، يمسك فى إحدى يديه دراجته، وفى الأخرى خيزرانة، بدأ فى إصدار الأوامر. لكنه سرعان ما أدرك أن الكناسين لم يعودوا يطيعون تعليماته وأنهم ينتظرون منه شيئا آخر. سمره ذلك للحظة. اقترب رجل الملاية منه، عاليا عريضا كموجة بحر هائج. إنه مستعد للقتل.

- إذن، ماذا فعلت بنا؟

لم يرد الملاحظ بأى شىء. انحنى على دراجته واستغرق فترة حتى يستعد لخطاب قصير وقوى. لم ينس أنه يمثل سلطة وأن قوة عظيمة لا مثيل لها تحفظه من كل الأخطار.

- صاح، فليسمع جميعكم. للرد على التماسكم، بداية حملتنى الإدارة أن أخبركم أنكم حفنة من اللواطيين . ثانيا موقفكم الناكر للجميل يستحق أسوأ العقاب. لأنه، منذ شهر بالكاد، لتلبية مطالبكم التدللية، أفلست حتى تقدم لكم زيا جديدا. وأنتم اليوم تتجرءون وتتطالبون بزيادة الأجر. وأكرر لكم ذلك مرة أخرى، وهذه المرة باسمى، أنتم حفنة من اللواطيين.

ما حدث بعد هذا الخطاب كان وحشيا ومحزنا. بداية ، رجل الملاية رفع الملاحظ وألقى به ليسقط على زجاج واجهة محل الأحذية. الكناسون، ومكانسهم فى أيديهم، ظلوا مُسمرين دهشة أمام الحركة المفاجئة لزميلهم. لم يكن لديهم الوقت الكافى للعودة من ذهولهم، لأنه قد لاح فى الأفق خيال أحد العساكر: إنه جُحلش. وسريعا، من كل مكان، وصل عساكر. سوف تستمر المعركة ما يقرب من ربع الساعة، فى أثنائها ارتجفت الحضارة من السخط. وما زاد الطين بلة، أن الأمر كان بعيدا عن الأنظار. لماذا أتى هنا هؤلاء اللواطيون من الكناسين بمطالبهم القذرة؟ بعض المارة الشَبِعين والمستدفئين بمعاطفهم تملكهم الاشمئزاز أمام هذا الهول. فقدوا تفاؤلهم – على الأقل – لعدة أيام. أرسلنا نبحث عن الإسعاف، ليس من أجل الجرحى، ولكن من أجل سيدة أُغشى عليها من فورة غضب انتابتهاعندما علمت تمرد الكناسين. انتهى كل ذلك بفائدة عظيمة للعسكرى جُحلش الذى أثبت فى الواقعة وحشية مفرطة وغير مبالية.

فى الداخل، الزقاق المظلم مكان هادئ جدا. الفقر قد استقر فيه، شرسا، وبمزاج متوازن تماما. لم يكن ينزعج متأثرا بشتام مرفه. لم يكن سكانه حسودين. لم يحسدوا قط فقر جيرانهم واجتهدوا للحفاظ على فقرهم فى مستوى المتوسط العام. بدا السمكرى للحظة مهتما بالعسكرى وسأله عن أخباره. حكى جُحلش حكاية العشية وكيف أنه بمفرده داهم العديد من الكناسين. لكنه ضخم حكايته إلى حد بعيد مما جعلها غير معقولة. هو نفسه، بالتأكيد، لم يكن يعرف لماذا ضرب الكناسون ملاحظهم، ولا لماذا تصرفوا بهذه الطريقة الغريبة ، وهم عادة متواضعون جدا ومتعقلون جدا.

سأل شاكتور :

– ولماذا فعلوا ذلك؟

– لا أستطيع أن أخبرك بذلك، يا رجل. إنه سر. من الأفضل لك أن تنشغل بأباريقك المتصدعة. السلام عليكم.

صاح شاكتور :

– يا عسكرى جُحلش، قل لى، أتوسل إليك، لماذا تصرف الكناسون هكذا؟

– بشرفى، يا رجل، أنت مخبول. ألم أقل من قبل أنك قد صرت مخبولا؟ فيم يهمك هؤلاء الكناسون؟

رحل العسكرى، سقط شاكتورمن جديد فى أفكاره المستحوذة عليه. تمرد الكناسين هذا أضيف لاضطرابه. إنه يحاول الآن أن يجد علاقة بين هاتين الحادثتين ذاتَى الطبيعة المختلفة، لكنه كان يشعر أن محرضهما العقل نفسه. تبعا له، جريمة سعدى وتمرد الكناسين لا يمكن أن يكون لهما إلا الأصل نفسه.

يجب إغلاق الدكان. نهض شاكتور، انتقل مترنح الساقين إلى حد ما. لم يكن شيخا تماما. إنه محنى الظهر ، ليس نتيجة العمر، لكن من الأعباء التى تملكت كل كيانه، استقرت بداخله كمرض لا يُشفى وكانت تتطلب الكثير من الرعاية. جمع بعض بقايا الصفيح ، ألقى بها فى أحد الأركان وانشغل بعمل القليل من النظام فى الدكان. لم يكن يضايقه بؤسه. كان كبيرا وواسعا ويجول فيه بحرية. كسجن فضفاض؛ كان حر التنقل من أحد جدران بؤسه لآخر من دون طلب إذن من أحد. فقط كان يضايقه شعوره بأنه وافر جدا. إنه بؤس ثرى. لم يكن يعرف كيف

ينفقه. نظر للطفل، وريث هذا الثراء. كان الطفل نائما على حزمة البرسيم؛ لا يبدو أنه يدرك كل منابع الميراث الأبوى. أيقظ الرجل الطفلَ حيث رداؤه المرفوع يسمح بانكشاف الجسم الصغير مما يسمح للبرد أن يعضه بلذة.

هيا ، يا صغيرى، انهض. سنرحل.

الطفل، المستيقظ، نظر من حوله فى الدكان الضيق وبحث عن موضوع حلمه. كان يعتقد أنه سيجد الخروف. لم يجد غير وحدة محزنة دخلت قلبه.

– يا أبى، سوف آخذ البرسيم.

خرجا إلى الزقاق. سار الرجل فى المقدمة تتدحرج فى رأسه عدة أفكار كبيرة جدا وما كان يُدهشه تحمسها أن تعيش بداخله. كان يتبعه الطفل، نصف نائم، وحزمة البرسيم تحت ذراعه. الآن، الزقاق لم يعد مضاء إلا ببعض النجوم الرديئة . سماء منخفضة وقذرة تثقل على أسقف المساكن الحقيرة وتجبرها على التهشم على الأرض الموحلة. بعيدا جدا عن الزقاق كان تائها فى أرض خلاء – فى وسطها – ترتفع أكواخ مروض القرود والساحر. ولج شاكتور والطفل إلى زقاق آخر ينزل منحدرا ويؤدى لمقهى (صاروخ).

توقف الرجل ونظر فى المقهى. كانت دهشته عظيمة عندما رأى حاروسى–لأنه كان يعتقد أنه فى السجن – يجلس بجوار شخصيات أخرى من الحى. المصلح كانت له هيئةُ صموتٍ ويدخن "الجوزة" فى صمت؛ يبدو أنه يتصدر هذه المراسم الجنائزية. من حوله كان الرجال يحتفظون بوضع يملؤه التركيز والحكمة. لا نستطيع أن نقول فيما كانوا يفكرون.

هكذا إذن أفرج البوليس عن حاروسى. بلا شك بعد أن عرفوا أن سعدى لم يُسمم زوجته ليذهب إلى الجنة، كما كان قد نصحه المصلح. هناك إذن شىء آخر. لا بد أنه يوجد سبب آخر أكثر عمقا لجريمة الحلاق؛ ربما سبب بسيط جدا، لكنه، بسبب بساطته كذلك، فات على كل الناس معرفته. هذا السبب، كان شاكتور يرغب فى معرفته بأى ثمن. كل جسمه البائس كان يتحرق لاكتشافه. بدا له أنه بمعرفة هذا الاكتشاف، سيشعر بالكثير من الراحة والسعادة. كثيرا من سنوات البؤس ستشرق من شهوة الاكتشاف. نادى حاروسى.

المصلح خرج من المقهى. كانت هيئته كمن تخيل الشيطان.

سأل شاكتور :

– ألديك متسع من الوقت؟

– نعم، لماذا؟

– فلتأت لتسير بعض خطوات معى. أحتاج للتحدث معك.

قال حاروسى :

– فقط لا تطلب منى نصائح، لم أعد أعرف الكلام؛ قطعوا لسانى!

– من قطع لسانك؟

– لم أعد أعرف الإجابة على الأسئلة. رأيتنى حالا أجلس مع هؤلاء الرجال. ولم نعد نتحادث!

سوف نتعلم من الآن أن نحيا من دون كلام.

فهم شاكتور أن المصلح لم يعد يود أن يلقى بنفسه فى التهلكة ولن يقول أى شيء إلاّ لو شعر أنه فى مأمن من كل تطفل. أمسكه من تحت ذراعه ومشيا نحو الأرض الخلاء.

تبعهما الطفل فى صمت. كان يسير، مهموما وحزينا، ممسكا بين ذراعيه حزمة البرسيم، معتقدا أنه مع كل خطوة سيقابل خروف حلمه. لكن لم يكن هناك غير كلاب متوحشة. كانت تفرخ بسرعة فى هذا المكان، يجذبها وفرة الفضلات والاختلاط برجال أصحاب مهن وحشية وحرة . كان قد نجح مروض القرود فى ترويض بعضها وأن يجعل منها نجوما مشهورة. فى هذه الأرض الخلاء، لم يكن سبب الظلام الوحيد الليل. هناك الليل، لكن فى هذا الليل نكتشف وجود شىء آخر، شىء أكثر ظلمة من الليل،: روح البشر الحزينة. توقف شاكتور والمصلح بمجرد أن أحسوا أن السماء خالية فوق رءوسهم، والمكان مناسب من حولهم. كان يُرى ، فى وسط الأرض، الساحر، واقفا على سطح كوخه، منشغلا ببعض الممارسات الغريبة. هبت الرياح بقوة، كما لو كانت تود طرد هذا البؤس العفن، المتجمع هنا منذ زمن مفقود. رائحة بول ورائحة حيوانات ميتة كانت تسيطر على كل امتداد الأرض؛ رائحة نفاذة ووافرة، أشد قوة من الرياح والسنوات.

قال حاروسى :

– أخيرا هل لك أن تعترف لى، بسبب هذه النزهة؟ ماذا لديك؟

– أود أن أسألك لماذا سمم سعدى الحلاق زوجته .

صاح حاروسى :

– ليس لى فى الأمر يد، لماذا تسألنى أنا عن ذلك؟ هل أنا أبوه أو أمه؟ لدى ما يكفى من المصائب كذلك. أطلب أن أترك من الآن فى هدوء.

صمت ونظر أمامه مباشرة. يرى الطين، يرى الأكواخ، يرى الحزن الذى يصعد من الأرض والسماء المسعورة كانت تمتص كل هذا الحزن. قال بصوت واهن لم يعد صوته بالفعل:

– فى الحقيقة، لماذا سممها؟ نعم، لماذا؟

قال شاكتور :

– انظر، أنت أيضا الآن تسأل عن ذلك بقلق.

– قال بعد لحظة :

– أتعرف، يا حاروسى، إن الكناسين قد تمردوا وضربوا ملاحظهم؟

– متى ذلك؟

– مساء أمس. العسكرى جُحلش هو من أخبرنى بذلك.

– ولم يقل لك لماذا تمردوا؟

– لا ، قال لى إن هذا سر وإنه من الأفضل لى أن أهتم بأمورى. تركته يقول لأنه ابن كلب ومن الممكن أن يسبب لى بعض المضايقات. لكن كل ذلك يبدو لى غامضا. كنت أود أن أكون على دراية جيدة.

– ماذا إذن؟

– التشابه الموجود بين جريمة سعدى وتمرد الكناسين.

– أتعتقد إذن إنه يوجد بين الحدثين علاقة ما؟

– ليست علاقة، ولكن الإرادة نفسها . إرادة بسيطة أشعر بها فى كل مكان من حولى، لكنى لم أصل لتحديدها. يجب أن نكون كثيرين من أجل ذلك. كلنا مع زوجاتنا وأطفالنا. حينئذ سوف تخترق قلوبنا، سوف تحدث اضطرابا وستكبر بداخلنا. وعندما تصبح كبيرة بداخلنا وعندما لا نستطيع احتمال وجودها فى قلوبنا، نحن أيضا سنرتكب أفعالا تبدو لنا خرقاء اليوم، لكنها، فى هذا الوقت، ستكون بسيطة وسليمة.

سأل حاروسى :

– أنت متأكد من ذلك؟

– لماذا تسـألنى إذا كنت متـأكدا من ذلك! انظر للولد هناك. انظر لحزمة البـرسيم. كـان الولد يريد خـروفا للعيـد. قلت له إننا فـقراء. بدأ فـى البكاء. فكرت: ها أنا وصلت لحقيقة بؤسى. وجريمة سعدى بدرت إلى ذهنـى. كانت تعـذبني، كـانت تتـعلق فى جسـمى. فى هذه اللحـظة مر العسـكرى جُـحلش وأخبرنى بحكاية الكناسين . لم أفـهم شيئا فى البداية. ثم، حاولت أن أفـهم. من داخل بؤسي، شـعرت بنفسـى مثـارا من فـعل هؤلاء الرجـال، وشـجاعتـهم منحتنى قوى كثيرة، واستيقظ طعم الحياة بداخلى. فى الحقيقة كيف أشرح لك؟ أنا شيخ حقا وكل ذلك ولد بداخلى هذا المساء.

– قال حاروسى :

– شـاكتـور، يا أخى، أنا خـارج من السـجن ومنهك تمامـا، أقـسم لك. لم أعد أفـهم شيئا. لكننى مع ذلك سوف أقول لك شـيئا ما. فى الحـال أشرت لى على الطفل وحزمة البرسيم لتجذبنى أكثر بالقرب من قلبك المريض. بدورك انظر مـدرب القرود هذا، هناك، بالقرب من كوخه. أتراه؟ إنه ليس ابنى؛ إنه ابن داعـرة، ولكن فى كل مـرة يحـدث أن أقـابله، يسـتدعى بـداخلى الفكرة نفـسـهـا: لماذا لا يوجـد مـدرب الرجـال؟ ربمـا سـوف نتـمكن من مـعـرفـة مـا يستطيع أن يفعله الرجال.

– أعرف ما يستطيعون فعله.

– إذن، أخبرنى بذلك.

– أعرف ذلك منذ هذا المساء فقط.

– فلتقل لى .

– الرجال يمكنهم تسميم زوجاتهم، يا حاروسـى، يمكنهم التمرد وضرب ملاحظيهم.

– ذلك لا يوضح شيئا.

– ذلك يوضح كل شيء. الآن أرى الأمر واضحا، واضحا لدرجة أنني خائف من ذلك . الخطأ في حزمة البرسيم هذه. لقد كنت نائما في بؤسي، مختنقا به ولا أفكر في إبعاده. لم أكن أفهم الحياة من دون وجوده. وها هو الطفل يأتي مع حزمة برسيم. وفجأة يصير الفقر بالنسبة لي غير محتمل. أعاني كرجل محترق على قيد الحياة نزعنا عنه عينيه، حتى لا يستطيع النظر حوله. حزمة من البرسيم، وإحساس بحياة أخرى كان قد تكشف لي.

– أية حياة؟

– لا أستطيع أن أخبرك بذلك. يوجد في الهواء أشياء تخبرني وتقول لي إن دمنا ليس باردا تماما. لا يزال يوجد بداخلنا الكثير من الحرارة ومن الحياة .

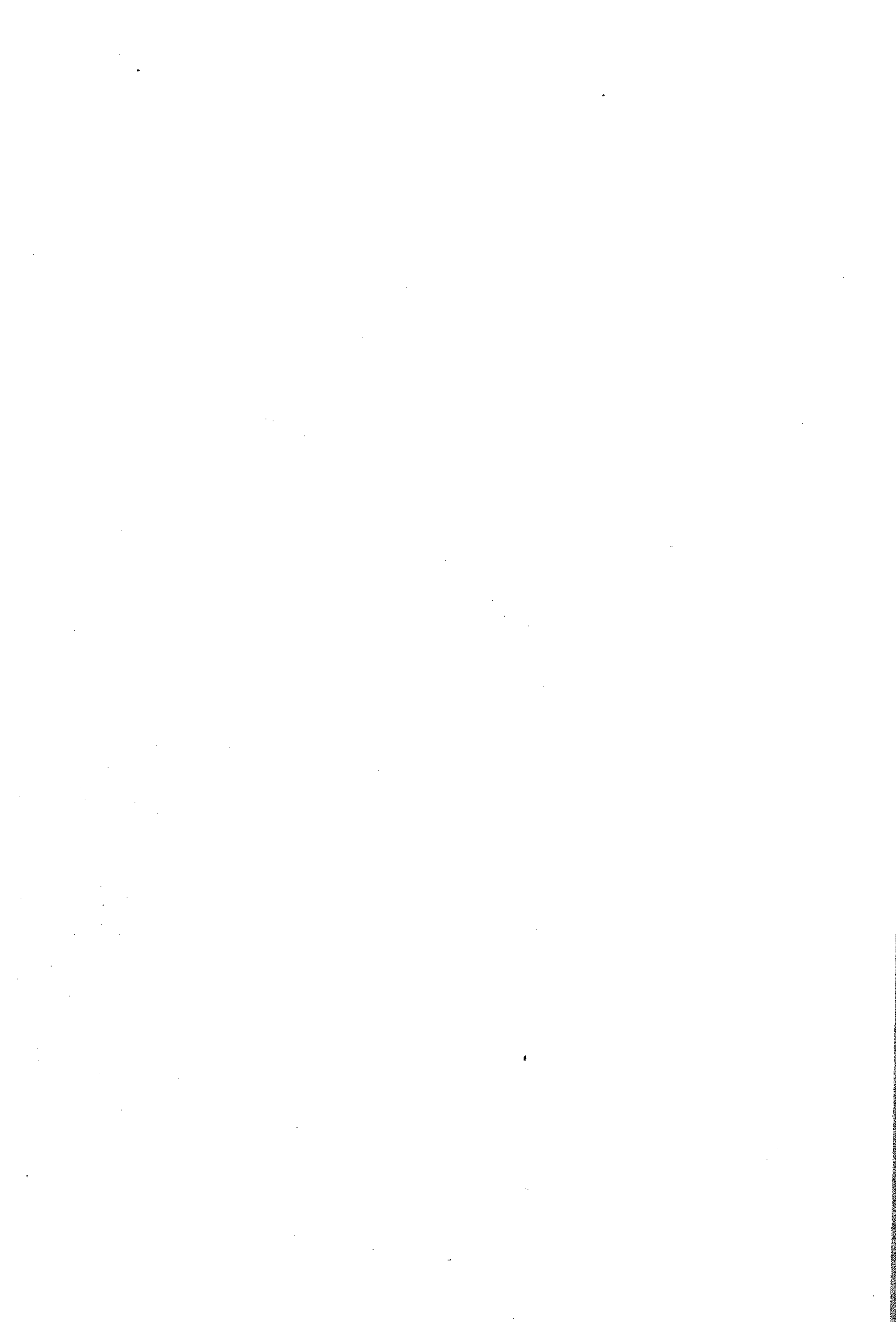
حرارة قادرة على المعجزات حقا.

– سوف تنصب من نفسك ساحرا؟

– لا، ليس أنا. انظر هذا الطفل الذي يبكي. بلا شك يشعر بالبرد، لأنه عار من نصفه الأسفل. لم يأكل منذ هذا الصباح. لكنه هو جالب المعجزات. إنه ساحر الغد. تساءلت في الحال، منهارا في دكاني: "من سينقذ الطفل؟" حسنا، الطفل سوف ينقذ نفسه. لن يقبل الطفل هذا الميراث الثقيل من فقرنا. سيكون لديه أذرع قوية بما يكفي ليدافع عن نفسه. هذا ما يعلنه الهواء من حولنا اسمع حاروسي...

حدث صمت امتد بعيداً جداً، حتى إلى داخل الأزقة الموحلة. لقد توقفت الرياح عن الهبوب. بؤس العالم كان في نهاية مصيره.

خطر الفانتازيا



دارت على حساب مدرسة المتسولين مجموعة من الحكايات المدهشة جدا.

أصل هذه الحكايات يعود لنقاش دار منذ فترة - فى مقهى الباشا - بين مُعلم التسول أبو شاوالى والمثقف توفيق جاد. لأنه وعلى إثر هذا النقاش الذى تجول بين تفاصيل لا حصر لها، بصدد التجديد المزعوم، فى جماليات النظام، سوف يصبح - على ما يبدو - فن طلب الإحسان ثوريا، فى كل مكان. وذلك كان يستدعى افتراض الأشياء الأصعب تصديقا. فالتحيز المثير للاشمئزاز من البعض والانتقادات الضارية من البعض الآخر كانا يجدان هنا مادة للممارسة. وسكان أرض الثعابين، الذين هم جميعا مسعورون بشكل رهيب، قد استفادوا من وضع غريب كهذا ليحدثوا فضيحة ضخمة، حيث تفرُّد الكارثة كان يغويهم. ثمة خطأ نفسى كان قد جعلهم يأخذون هذه القضية المؤسفة مأخذ نكتة عظيمة. فهم أناس لا يسعون للبحث فى جوهر الأشياء، ويقنعون بأن يستخلصوا منها نتائج مبتسرة ودائما ذات طبيعة فضائحية. كما أنهم شغوفون بالشجارات التى لا نهاية لها ، وبسوء الفهم غير القابل للعلاج وبكل ما يقلب الحياة بلا نهاية. كيف سيخطر ببالهم أن اختلافات الرأى التى قامت بين أبو شاوالى والمثقف توفيق جاد كانت تخفي مشكلة اجتماعية واسعة النطاق ؟ على الأرجح، واحد منهم فقط كان قد أدرك كل ذلك، لكنه فودة الساحر رجل شديد الغموض وبخصوص تدخله لا نستطيع أن نعول عليه على الإطلاق. باختصار، كنا نتوقع الأسوأ، عندما فسدت الأمور بطريقة مفاجئة وأوشكت أن تتحول لدراما.

إنه يوم كالأيام الأخرى: بطىء، شرس وجائع للضحايا البشرية. لا أحد يستطيع أن يقول أي نوع من الأهوال تستعد للولادة، ولا يستطيع تحديد نوع المصائب الجديدة التي تهدد حياة البشر. لقد بدأ البرد منذ فترة طويلة

مهمته المؤذية. لكن- الآن- القلق الوحيد يأتى من كتلة السحب هذه، التى تتسكع متثاقلة ، ومن خلفها كانت الشمس شاردة تماما.

مدفون اليدين فى جيوب قفطانه، يعبر أبو شاوالى درب الطفل الذى يبول، بهيئة متجهمة ومُهَدِدة بجثة متجولة. يطرف بشكل دائم بعينيه المريضتين ويتوقف من حين لآخر للتفكير. إنه شيخ عمره ستون عاما، أشعث اللحية ذو وجه شاحب وهزيل. يطفو شال كبير رث على كتفيه النحيلتين كجناحين مخيفين لطائر جارح. وساخته لم تقدم أى شىء مميز ؛ إنها تتوافق مع المحتوى القاسى الذى يحوطه. فى كل خطوة، كان يخاطر بالانزلاق فى برك البول اللانهائية، الممتدة هناك كفخاخ فاحشة. درب الطفل الذي يبول يؤدي إلى مدرسة المتسولين. إنه الدرب الأكثر فقرا والأكثر ضيقا في المنطقة. وأكواخه أكثر بؤسا وأكثر قذارة من أى مكان آخر؛ فبراميل النفط القديمة التي تُشَكِلها متصدعة وصدئة لأقصى حد. فهى تبدو على استعداد تام للانهيار، لكن الفقر الذى بناها بيديه المتوحشتين ترك عليها بصمته الخالدة. كائنات حية تسكن هنا؛ أصواتها الكهفية تدوي وتملأ الجو بتهديدات غريبة. الروائح الكريهة لِلمنازعات والشكاوى الدنيئة تترشح عبر الفواصل القاتمة. فى كل مكان تتكشف العلاقات الحميمية البشعة الممددة وبلا أمل. بعض أوانى الطبخ متناثرة على الأرض، يتنصل منها أصحابها كأشياء نجسة وغير مفيدة. النفايات – التى لا تحصى من أجيال عديدة ماتت فنُسيت – تزدهر بطول هذا الدرب الملعون. إنها نهاية العالم؛ لا يمكننا الذهاب بعيدا. هنا وجد البؤس الإنسانى* مقبرته.

فجأة يتوقف أبو شاوالي ويطرف بعينيه. تتخلص الشمس من كتلة السحب وهذا الإفراط المفاجئ للنور يشعره بخطر ينجم عن وضوح الأشياء.

يبدو له الخطر في شكل لون مشرق ، مثمر بشكل فريد، ويشبه جرحا مفتوحا فى الأرض السوداء والبائسة. يبدو أن ذلك يتطور فى فضاء ضبابى ، كالحلم لا يمكن الإمساك به. يقترب أبو شاوالى بحذر ويبقى لفترة طويلة يتأمل هذا الضوء الأرجوانى المتدفق عبر بشاعة المادة غير القابلة للتدمير، والتى توجد ممثلة فى مجرد رداء قطني أحمر. لكن الذي لا يستطيع فهمه بعد ، وجود هذا الرداءعلى جسم الصغيرة نوس؛ واحدة من أفضل تلاميذه. إنه شىء ما غير مسبوق كالظهور المفاجىء لحماقة جماعية .

حينئذ تذكر أبو شاوالى أن الصغيرة نوس لم تظهر في المدرسة منذ عدة أيام. كان يظن أنها مريضة أو ببساطة ماتت. وها هو يقابلها الآن فى زينة صاخبة، فالوجه نظيف، مبتسم، وربما أيضا مخضب. فى النهاية طريقة غريبة لجلب نظر المحسنين . انحنى أبو شاوالى ، أمسك بذراع الصغيرة نوس وشرع فى جرها ، يود بهذه الحركة المؤذية أن يدرك حقيقتها الملحوظة. ثم أخذ يسبها بطريقة فظة وفاحشة، ويعاملها كفاجرة وكابنة داعرة. عندئذ بكت الصغيرة نوس وأخذت تطلق صيحات حتى إن أم عاكوش، أمها ، ظهرت على عتبة كوخها. إنها ثرثارة بغيضة، لا تقهر كالجدار نشهد لها كبطلة للعديد من المشاجرات الدامية ، حيث إن بعض الرجال مع أنهم ليسوا ضعافا كانت تدوس عليهم وتعرضهم للعار فى كل مكان. إنها تصل كبحر هائج.

رآها أبو شاوالى تأتى نحوه ، أغلق عينيه كأنه يهرب من رؤية كارثية.

– إنها ابنتى التى تعاملها كبنت داعرة، يا خرفَان يا عاجز؟

هز صوت أم عاكوش الدنيا. صوت غير محدد الجنس، مرعب كالموت.

قال أبو شاوالى :

– يا أم عاكوش ماذا تسمين هذا ؟ والله إنه لعمل مخفق. ماذا تفعل ابنتك بهذا الزى ؟ سوف تجعلين منها عاهرة؟

– أنت العاهر. أتعتقد أن كل الناس مثلك؟ أيها المؤخرة القذرة ! هيا ، فلتترك الصغيرة هادئة. لا تحتاج لنصائحك الوسخة. يا ابن المتسولة.

يريد أبو شاوالى الانسحاب من المعركة ، لكن وعيه مشغول بصراع غير متكافئ. إنه يدافع عن فكرة اجتماعية. خلفه كل كتلة البؤساء. طفل يتبول ليس ببعيد عن هنا، بصوت رشاش . تلعب أشعة الشمس في برك البول.

– فلتوضحى لى. ماذا تعنى هذه المسخرة. أأصبحت مجنونة، أيتها المرأة؟

– ماذا تريد أن أوضح لك، أيها الشيخ الخرفان. هل نحن مدينون لك بشيء ما؟

– من ابن الكلب الذى علمك أن تتحدثى هكذا، أيتها المرأة الجاهلة؟ إنها لغة أناس شبعين. لكنك عما قريب سوف تموتين من الجوع مع أولادك. لا تأتى لتحكى لى إذن حكاياتك. لن أستمع لك.

– ومن يريد التحدث معك، أيها المتسول القذر؟ هل نحن بحاجة لمعرفتك؟ تعالوا اسمعوا، يا ناس، هذا الشيخ المعفن الذى يتجرأ ويسب امرأة شريفة.

بالضبط فى هذه اللحظة، تختفى الشمس وراء كتلة السحب ، وظل رطب يمتد في كل مكان على الأرض. ينظر أبو شاوالي لفستان الصغيرة نوس، الذي يبدو الآن فاقد البريق، أقل إشراقًا مما كان عليه تحت أشعة الشمس. ذلك أفقرها إلى حد ما لكنها لاتزال تحتفظ بطابعها ذي البريق الفنتازي. إنه فستان من القطن أحمر اللون، تزينه زهور صغيرة صفراء. يرى فيها

أبوشاوالى تحديا حقيقيا لكل الأعراف السابقة، لكل مبادئ التسول الثابتة. جعلته جرأة هذه الخيانة يفترض أخطارا أخرى، أكثر اتساعا، أكثر لياقة. يشعر بالدوار، بالمعنى الحرفى غمرته رائحة البول النفاذة هذه، المفرطة فى السخاء، التى تؤثر فيه كالمخدر.

يبدو أن الشمس قد اختفت للأبد. بالقرب من أحد الأكواخ رجل يجلس على كرسي مطبخ، يُفلى من القمل بلا مبالاة. تمر امرأة، تحمل بستلة ماء متوازنة على رأسها. لم تكن متعجلة؛ تمر ببطء ويلاحظ أبو شاوالي أنها حامل.

قال فى النهاية. :

– سأتركك، أيتها المرأة المنحرفة، ماذا يمكننى أن أقول لك؟ مخك يشبه مخ جاموسة. وبالنسبة لهذه المستحدثات الزائلة، أبصق عليها.

ويبصق فى اتجاه الصغيرة نوس.

– تصيح أم عاكوش :

– يا سفاح، تعالوا يا ناس لتروا، قاطع الطريق هذا الذى يهاجم البنات الصغيرة.

فى البداية كان شجارا فاقدا الوعى ، ولم يكن يبدو خطرا. ثم تُسمع بعض الصرخات، مدعومة بموجة من اللعنات القاتلة ، حيث يميز المرء بقلق صوت أم عاكوش القاسى . ثم أصبح الشجار أكثر كثافة ، أكثر عتوا، كما لو كان اصطدما بقوة هائلة. حينئذ فهم أهل المنطقة أن هذيانا انفجر فى مكان ما وتسارع جميعهم باتجاه مكان الشجار. من دون السؤال عن أى شىء، من دون أن يشغلوا أنفسهم بالسبب، تدخلوا فى الموضوع ، ثم أطلقوا الشتائم وأوجدوا التباسا غير مفيد وغير قابل للعلاج.

لا يعرف أبو شاوالى كم استمرت حفلات الزفاف المؤلمة هذه ، ولا كيف خلص نفسه وتمكن من الهرب.

توجد مدرسة المتسولين فى نهاية درب الطفل الذي يبول ، فى مكان يُدعى ميدان النخيل. إنها كوخ حقير قديم فى حالة من الانهيار، غارق على نحو فظيع فى الأقذار. وفى الوقت نفسه يستخدم مسكنا لأبو شاوالي، والأسبوع الماضى تم اكتشاف ثعبان ذى طول مروع فيه، فشل - بالموت المبكر- فى كسر سير العملية الدراسية للعديد من المتسولين الصغار . ومنذ ذلك ، أصبح جميع المتسولين الصغار حذرين وينظرون من حولهم بعيون قلقة. فالمكفوفون أنفسهم يتعلقون بزملائهم، ينتظرون لحظة ليلوذوا بالفرار . إلا أن الثعبان لم يظهر ثانية ؛ نعتقد أنه قد اختبأ عند فودة ، الساحر، لأننا رأينا هذا الأخير يجوب الأرض باحثا عن أطعمة غريبة.

فى الداخل، يعرض الكوخ مظهرا لكهف مروع وكئيب. أبو شاوالي جالس، مطوي الساقين، على سرير حقير يغطيه العديد من الخرق ، يبدو بها مرصعا. من مكانه يسيطر على لفيف المتسولين الصغار، الرابض عند قدميه فى أوضاع مستسلمة بشكل غريب. يغوص نظره بين هذا الركام من العراة المشينين والأسمال الكريهة. وفى يده اليمنى، يمسك عصا يعنف بها هذه الأجسام الصغيرة الحزينة، يوجههم وأحيانا يمنحهم ما يشبه الحياة. لم يبدأ بعدُ درسَه. فالصدمة التي شهدها جعلته يتأمل ومنعته من توفير الثروات القيمة من تعليمه. لم يتعافَ من ذلك بعدُ. وفى بعض الأحيان ، ينطق ببعض التهديدات المريبة ضد كائنات لا مرئية ، حيث الشر يبدو زائدا على الحد. يكرر- كثيرا وبكراهية - السباب الذى يمنحه هيبتة وكرامته بوصفه مربيا.

إذن هذا الملعون توفيق جاد ابتكر طريقةً جديدةً لطلب الإحسان، طريقةً لا إنسانية وفانتازية ، ليس لها أية علاقة بالواقع. إنها حقا شيءٌ ما من درب المستحيل؛ مسخرة، رغبة حقيرة فى السخرية من الناس. فأبو شاوالى

يشمئز من الفانتازيا، يتحيز للواقعية الأكثر فجاجة ، والأكثر تجردا من الملاطفة، تلك التي تُمسك بحناجر الزبائن، تخنقهم وتجعلهم غير مؤهلين لأى نوع من التفاؤل. إنه يلزمه مخلوقات تتجسد في داخلها أسوأ التشوهات الجسمية، ملوثة بآلاف الأمراض المعدية التى لا يرجى شفاؤها. فى المجمل مادة بشرية تستطيع أن تُشعرُ- بالأسى- القلوب الفاسدة والضمائر المشوهة للإنسانية الشَبِعَة. ليس فقط إشعارهم بالأسى ، ولكن أيضا إخافتهم. لأن أبو شاوالي كان يحمل في داخله - متجذرة على نحو عميق- فكرة اجتماعية مملوءة بالثورات المظلمة. وهذه الفكرة القاسية والمتصلبة لم تكن لتستطيع التصالح مع هذه الفانتازيات اللطيفة الناتجة عن عجز مثقَّف محبَط. أدرك أبوشاوالي أنه لا يوجد عدو له أكبر من هذا الرجل. ومع ذلك كانت شخصية (جاد) الغريبة تفتنه رغما عنه.

فى أثناء الحوار الذي دار بينهما - في مقهى الباشا- ظهر جاد غير واقعى فى هذا اليوم. بدا أنه يطور واقعا غريبا ، يرجع ربما لتأثير الحشيش، لأنه تعوّد - لفترة طويلة - المخدرات. فى ذلك المساء بدأ فى حكى قصص عسيرة ثم - فجأة - من دون تمهيد، أعلن أن علم النفس علم رائع وأن العصر هو عصر علماء النفس. بالتأكيد لم يفهم أحد ماذا يعنى ذلك ، حتى على مبارك محصل الترامواى السابق ، رغم أنه رأى وسمع الكثير من الأشياء. وعندما سأله أبو شاوالى توضيحا، لم يود جاد قول أى شىء. فقط استمر فى قوله إنه هو نفسه قد درس هذا العلم لمدة سنوات طوال، مما أتاح له أن يعرف بدقة روح هذه الحشود التى تجول فى الشوارع وتجلس فى شرفات المقاهى. كما قال إنه استحوذ على عقلية هذه الكائنات الزاخرة المتخمة - المقيمة فى نعيمها المقيت - بالمعارف الغريبة والمشهورة. على سبيل المثال، لقد فهم إلى أى مدى كانت هذه الكائنات لا تحب أن تُشوَّش

فى رؤيتها التفاؤلية للعالم، بواسطة العرض المتعمَد لكثير من المآسى الأليمة. وتبعا له ، ذلك يوقظ فيهم مشاعر ندم غامضة وتسلمهم لحالة من الشر لا تصدق. فمجرد أن يأتى متسول صغير رث الثياب ليعرض عليهم مشهدَ جذامه أوعماه، يشمئزون اشمئزازا شديدا، ويتهيؤون للسباب والإهانة. باختصار، هكذا وجدت شروط التسول مختزلة فى صراع لا يتوقف ويائس.

لكن المثقف جاد كان قد وجد وسيلة لعلاج هذه الحالة المشينة ، التي تجعل التسول عملا عدائيا وبربريا. لقد أزال - بكل بساطة - الشفقة كوسيلة تكتيكية. متخليا عن القواعد القديمة مرسخا معطيات جديدة ، لم يعد يعتمد على مساهمة البلاءات الملموسة شديدة التفاوت . الرحمة عاطفة ميتة ، ومن ثم لم نعد ننتظر أدنى مساعدة. من الآن فصاعدا لا يجب أن يُثير الفقراء الشفقة لكن التعاطف . فالتعاطف عاطفة لا تزال غير مستغلة من الطبقة المتسولة . حتى ذلك الحين ، كانت تكمن قيمة المتسول فى بؤسه الشنيع ، جروحه المتقيحة ، وساخته التى لا توصف. أيضا هذا الصنف من المتباكين غير القابلين للشفاء ذوى الآلام الصارخة والجانب الإنسانى، يجب أن يختفى ويمنح مكانا لحشد من مخلوقات صغيرة ترتدى ملابس كعرائس من الحلوى ، وذات أوضاع بسيطة وساحرة. من خلال وضعهم وحركاتهم الملوئَين برقة غرائبية ، سوف يُنشئون لدى الزبائن تيارا من التعاطف ، سرعان ما يكافئون، لأنه لا شىء يرضى الإنسان الشَبِع كالعرض الذي يثيره عاطفيا بشكل لائق، من دون توسيخه أو إفزاعه. بالتأكيد كل الحمقى العاطفيين فى المدينة الأوروبية تغويهم هذه الغواية التى لا تقاوم لهذا المشهد المثير الجديد.

كانت هذه الأطروحة فى خطوطها الرئيسة هى النظرية الرائعة للمثقف جاد التى اكتشفها وطورها.

يتذكر أبو شاوالى كل تفاصيل هذه النظرية الملعونة ، بعدائية متنامية . هذه الجهود النظرية لمثقف محبط لم تكن ذات طبيعة مرضية لحسه بالعدل المطلق. هو دائم التفكير فى كتلة الفقراء الضخمة. إن أصالة مثل هذا المفهوم تبدو له أنها تضمر خطرا مستترا ، قادرا على تهديد الاندفاع البطيء للزمن. يعتبره كفانتازيا لا أخلاقية ومنحطة. لم يعد يستطيع تصور أن توفيق جاد أراد فقط المزاح برفعه مثل هذا الجنون لمصاف المبدأ. لقد اتسع مجال النظرية بشكل واسع. نموذج الصغيرة نوس كان أمراً فريداً في تاريخ التسول، ولكنه أمر واقعي، خاضع لمجال التطبيق. هذه الصغيرة نوس واحدة من أفضل تلاميذه. كان يمكنها التعلق بالزبون حتى الموت وأخذت من أمها صفات قدرة التحمل والمثابرة الوحشية بالفعل.

تساءل أبو شاوالى عما إذا كان يفقد تلاميذ آخرين وحاول أن يخمن رد فعل الآباء تجاه الأفكار الجديدة. طرف بعينيه ونظر على نحو محموم لقدميه. يستطيع أن يرى تلاميذه، أدرك أنهم لم يغادروا بعدُ ، وإنه يمكنه الاعتماد على القوة المتضمنة فى بؤسهم المرير. لكن المتسولين الصغار كانوا هناك، فى انحطاطهم التام؛ يستطيع رؤيتهم وأيضا لمسهم مباشرة بيديه المعروقتين. كانوا هناك، يجلسون القرفصاء على الأرض الترابية، يقدمون للبرد والرطوبة أجسادهم للتعذيب كمبتدئين. ومن بينهم يوجد مكفوفون ، كُتع ، عرجى، وآخرون أصيبوا بعاهات نهائية. جدران الكوخ السوداء تغطيهم بظل بغيض ، بلا مخرج على الإطلاق. يتأملهم أبو شاوالى فيصمت، ثم- للحظة - يتخيلهم يرتدون ألوانا زاهية، وجوههم نظيفة، مبتسمة وجميعهم مثل الأطفال الحقيقيين لآباء حقيقيين. لكن هذه الرؤية المنافية

للعقل جمدته من الخوف وأطلق وهو يرتجف على سريره الحقير، الشتائم الطقسية:

– أبناء الخنازير، الملاعين. هل أتيتم هنا لتناموا؟ هيا، استيقظوا، الدرس يبدأ.

عندئذ تحرك المتسولون الصغار وأخذوا أوضاعا تتوافق وخطورة اللحظة. بدورها الصغيرة عُلا، مجندة جديدة ومن ثم تبدو حالتها مثيرة للاهتمام للغاية. نهضت من الأرض وذهبت لتقف أمام أبو شاوالي . تمسك بين ذراعيها طفلا ذا بضعة شهور، ولد كفيفا وملفوفا في كل أنواع الخرق القذرة. يبدو الطفل ميتا منذ فترة طويلة ووجهه يتشح بشحوب أخضر.

دمدم أبو شاوالى:

– إذن، هو دورك ماذا تفعلين بهذه اللفة بين ذراعيك ؟ هل تجولين بصرتك بالمصادفة ؟

قالت الصغيرة :

– هذه اللفة أخى.

– آه ! هو أخوك! اقتربى حتى أراه.

تقترب الصغيرة عُلا وتمد لأبو شاوالى اللفة المقرفة من الأقمشة القذرة التى تلف أخاها. الوجه الضارب فى الخضرة للمولود الجديد فقط ما يبرز من اللفة، هادئا كالميت. ينحنى أبوشاوالى، يتعرف طبيعة هذا الموضوع ويبدو للحظة يفكر. لمثل هذا العرض، يلزم تقنية مناسبة.

– حسنا، سوف نرى هذا فيما بعد. فلتجلسى الآن. فقط انتبهى جيدا حتى لا يختنق في هذه اللفة. هل يأكل؟

– لا فقط فى بعض الأحيان يفتح فمه.

– حسنا، حسنا، اجلسى.

تصل الصغيرة علا لمكانها بين زملائها. ينتظر أبو شاوالي لحظة ، ثم ينادي الصغير كيكا.

– تعالَ هنا ، يا ابن الخنزير ، وقل ما تعرف.

بخصوص ماذا؟ يا معلم.

– ماذا تقول : بخصوص ماذا يا بن أمك ! هل تظن أننا نلعب هنا لعبة الحَجلة؟ هيا، اقرأ عليّ درس الأمس. كيف تتعامل مع زبون يرتدي بدلة جديدة؟

ساد صمت حرج بعد السؤال.

– لا تعرف، يا ابن الخنزير.

لم يكن التلميذ كيكا شديد الذكاء؛ ميراث ثقيل ومشؤوم يثقل عليه. ظل هناك جامدا، الأذرع مكتوفة بقوة ، حتى يحافظ على اليدين تحت دفء الإبطين. يبدو متحيرا وحزينا تماما. نظافة نسبية فى وجهه تضىء الظلام القبيح للكوخ. يلاحظ أبوشاوالى هذا البياض الوقح، ويدخل فى غضب جنونى.

– لكن اقترب إذن! ياالله! هل أحلم، أو بالأحرى هى الحقيقة، أنت غسلت وجهك! هيا، أجبنى أو سأقطع رقبتك. تسمعنى، يا ابن الخنزير.

استولى رعب همجى على كل جسم الصغير كيكا. لم يستطع النطق بكلمة. لكن السمت الشرس لأبو شاوالى أقنعه بالتحدث.

– أول أمس، يا معلم، أمطرت. جاء ماء المطر على وجهى. إنها ليست غلطتى.

– ولم تكن تستطيع إخفاءه من المطر، يا حمار؟ وجهك يشبه الآن مؤخرة قرد. ماذا سأفعل بجمال كهذا؟ اذهب ؛ أنت مطرود.

لم يتحرك الطفل. لا يعرف ما يجب أن يفعله.لا يفهم كيف يطرده أبوشاوالى من المدرسة.

صاح أبو شاوالى :

– إذن، لا تود الرحيل .

– أين سأذهب؟

– ستذهب إلى أمك، يا جاموس. سوف تخبرها عني أننى لم أعد أود رؤيتك هنا، لأنك تجازف بإفساد زملائك بمظاهر ابن العائلة وميلك المفرط فى النظافة. لأننى منذ فترة طويلة أرقبك، يا صغيرى. منذ وقت طويل أدرك أن مظهرك يصبح أكثر فأكثر غير معتاد فى مكان كهذا. ببساطة أمك أرملة فقيرة مريضة وليس لها غيرك ليقوتها. ولقد عهدت بك إلىّ حتى أصنع منك رجلا، حقيقيا وليس فتى شوارع جميلا. لكن الله يقرر كل شىء، يا بنى، لم تخلق لتصبح متسولا، انصرف من هنا.

أدرك الصغير كيكا أن كل شىء قد انتهى، كل شىء، حتى بخصوص وجوده أيضا. لم يعد لديه أدنى شك؛ طُرد من المدرسة . كيف سيمثُل أمام أمه؟

مثقل القلب، ينظر لزملائه للمرة الأخيرة، ثم يقرر الرحيل بتمهل. وهو فى الخارج، بدأ في التبول بحزن لا نهائى.

الآن يتحدث أبو شاوالى لتلاميذه عن ضرورة أن يكونوا متسخين بشكل دائم وعما تحدثه الوساخة من تأثير على قرار الزبائن. يعطى بعض الأمثلة

العنيفة ليعضد فرضيته، ثم يطردهم جميعا و يشرع في التفكير. في البداية، يحاول أن يجد في المدرسة الجديدة طابعا رخوا وزائلا. يحدث نفسه إنها طريقة عمل فتاكة لكنها ستزول مع الوقت. لا يمكن السير ضد التقاليد ولا يمكن التخلص بسهولة من العادات والمواثيق المستقرة منذ الأزل. هل رأينا من قبل متسولين يتنزهون فى الشوارع، يرتدون ملابس كالبهلوانات ويثيرون عطف الناس المحترمين؟ حتى لو حصل ذلك على نجاح ما، لا يمكن أن يكون إلا نجاح حب الاستطلاع. سرعان ما يلاحظ أهل المدينة أن ذلك لم يكن إلا حيلة مضحكة تهدف إلى خداعهم. ولن يسمح أي شخص لنفسه بالاستغراق فى هذا الأمر طويلا. لا يمكن إخفاء ويلات العوز الموجود من آلاف السنين ، إنها تنتقل بشكل حتمى، على الرغم من مستحضرات التجميل وأدوات التنكر.

يعتقد أبو شاوالي اعتقادا راسخا في فضيلة الإرهاب. المتسولون القذرون الذين يلقون الإرهاب فى كل مكان، هذه هى الصورة التى تصنع القوة. إن قوة الفقراء تكمن فى أسمالهم وفى وجوههم المعذبة . لا يمكن انتزاعهم هذه القوة؛ إنها تظل الملاذ الوحيد لمصيرهم المأساوى. فبها يدافعون ضد عالم الأقوياء الإجرامى وبها أيضا يستطيعون التأثير فى هذا العالم، ويؤذونه فى أمنه وفى رفاهيته.

انجرف أبو شاوالى عبر حماسته. هكذا واتته فكرة أن يذهب لمناقشة توفيق جاد. ربما سيجعله يفهم أن وجود الفقراء لا يمكن حله بطريقة فانتازية هكذا. تبدو له هذه المقابلة ضرورة مطلقة. لكن سيكون ذلك في وقت آخر؛ الآن يود قضاء قيلولته. إنه فى حاجة للراحة لأن مشاجرة أم عاكوش أجهدته بشكل كبير.

عندما استيقظ أبو شاوالى، كان الليل قد أطل. بدأ– وبشكل عشوائى – فى إطلاق بعض السباب الموجه لتلاميذه، لكن لم يرد عليه أحد. عندئذ خرج من كوخه الحقير وتوجه نحو درب الباشا، الشريان الرئيسى للمكان. قرر الذهاب إلى توفيق جاد.

ضرب الليل جذوره فى الأرض. الجو كدر وبارد. هنا وهناك، بعض النيران من خشب مشتعل من دون يقين كبير. بعض الناس يجلسون القرفصاء على عتبة أكواخهم ليخدعوا جوعهم بالانخراط في حوارات لا طائل منها، بينما آخرون، متخفون خلف جدران غير واقعية، يمارسون بلا كلل الحب .أطفال متبلدون من الفقر ومن التعب ينامون غير مدركين للبرد، بين القذارة والبراز. يعرف أبوشاوالي هذا العالم، كل هذه الكائنات الحزينة والموسومة بمصير لا يرحم. ذلك كان بالنسبة لمعظم آباء تلاميذه. فعادة تتسم تحياتهم بالتقدير والاحترام. لكن هذا المساء يعتقد أنه يستشف فيهم بعض الارتياب. بعضهم ألقاه أثناء مروره بمزح مشينة. أدرك أبوشاوالى أن مؤامرة كانت تحاك ضده وتوقف مترددا ، بالقرب من درب اللصوص.

ضوء فريد من نوعه لكنه وافر يبرق بالقرب من المكان الذى توقف فيه. إنه مقهى حامد فرغلى الملقب بالباشا، لأنه الوحيد فى المنطقة الذى كان يضاجع ثلاث نساء بشكل شرعي. لا يود أبو شاوالى أن يراه الباشا ولا الجالسون عنده فى المقهى الآن. كان يعرف أنهم سوف يسألونه عن أحداث الصباح وهو يود تجنب النقاش قبل أن يقابل توفيق جاد.

اتجه يمينا أبوشاوالى واندفع داخل درب اللصوص. هناك ، الظلمة مؤكدة ويجب أن يسير محتكا بالأكواخ. صمت مخيف يسيطر على هذا الدرب المنيع حيث يسكن، كما يقال، أكبر قاتل فى العالم. خلال بضع

دقائق، استطاع أبو شاوالى متحسسا طريقه التعرف على كوخ توفيق جاد.
كان مشيدا من ألواح خشبية متفسخة وغير ملتحمة ويفصل بينها تيارات
الهواء التى تعبرها وهى تصفر. اكتشف أبوشاوالي حجرا كبيرا بالقرب من
هنا سوف يجلس فوقه. يفضل عدم الدخول عند توفيق جاد، ولكن بالأحرى
يقابله عندما يخرج من كوخه. سوف يصبحون هكذا أكثر راحة فى الحديث.
فى الحقيقة، يخشى أن تؤثر عليه حميمية هذا الرجل الغريب.

أبو شاوالى يعرف أن توفيق جاد سوف يخرج من كوخه فى نهاية
المطاف. إنه يعرف مثل كل الناس المرض الذى يعانى منه توفيق جاد والعادة
المأساوية الناتجة عن هذا المرض. لقد كان يعانى المثقف جاد من إسهال
مزمن، مما كان يضطره إلى الذهاب لمرات عديدة فى اليوم إلى المراحيض
العمومية – التى توجد على بعد كيلومتر من هنا– بالقرب من المدينة
الأوروبية . كان يُشاهَد دائما وهو يهرول فى الطريق ، الطربوش مغروس
حتى أذنيه صانعا بعصاه لفات عبثية وخطيرة.

ممدا على حصيرته ، يحاول جاد أن يتوصل لطبيعة الحضور الذى –
منذ لحظة– تجلى بطريقة غير محسوسة وغريبة . " ليس لصا بكل تأكيد"،
حدث نفسه. يود النهوض، لكنه يشعر بثقل فى أطرافه. هذا الحضور
المستغرب أفزعه وبدأ يتصبب عرقا كما لو كان تحت تأثير حمى شديدة.
ومع ذلك رفع نفسه على مرفقيه وتأمل الظلام الدامس الذى يحيطه، محاولا
الإمساك بإشارة ما كاشفة . لكنه من المستحيل أن يرى أى شىء فى هذه
الظلمة. مال جاد يمينا، يبحث عن قطعة من شمعة ملقاة على الأرض
يشعلها . فى ذلك الحين أدرك مشهدا غير عادى وفى الوقت نفسه مطمئنا.
في أحد أركان الكوخ تقف – فى وضع ثابت – دجاجة كبيرة بريش ذهبى

اللون، مثبتة عينيها على جاد كما لو أنها تود تنويمه مغناطيسيا. فى البداية اندهش وسُر جاد بهذه الدجاجة. وبعد ذلك تساءل كيف استطاعت الدخول إلى كوخه. يعرف أن فى كل المنطقة لم يعتد أحد على تربية دجاج . وآخر من زار المنطقة من هذا النوع تلك التى كانت قد قدمت للباشا كوجبة ، منذ عامين ، عند خروجه من السجن.

جاد فى حالة ارتباك شديد. ماذا يعنى هذا الطيف الرائع؟ جمود الدجاجة أحاله هو أيضا لجمود رهيب و تأملي . منذ فترة طويلة لم ير دجاجة بهذا القرب . ثم إنه ثمة مغناطيسية غريبة فى عيون هذه الدجاجة. كان جاد يشعر أنه منجذب لها كما ينجذب لطيف جسمي خطر مملوء بالرقة والأنوثة . إنها تفتنه بشكل واضح. يرتجف جسمه تحت ضغط الرغبة المفاجئة، التى تملؤه نشوة ورهبة. يظل جامدا على حصيرته، مفتونا بالعيون الواسعة لهذه الدجاجة ذات الريش الذهبى التى تبدو أنها تأخذ مظاهر امرأة شهوانية ، تتعهد برذائل غير معروفة.

بدا لجاد أن الدجاجة تحركت. كان يشعر أن انفجارا سوف يحدث وأن بالفعل امرأة ساحرة وشهوانية سوف تخرج من هذه الدجاجة وهى تهزهز مؤخرتها . وجه رائع خرج من عفن وخسة الليل. ربما أيضا روح لطيف مهزوم من الفقر والذي سوف يتحرر قريبا. ينتظر جاد هذه المعجزة ، وهو ينهج ، كمن على وشك الإغماء.

مر وقت لانهائى، لكن لم يحدث أى شيء. انطفأت الشمعة الآن. تشوش انتباه جاد فى الظلام وشعر فجأة أنه فريسة لآلام مبرحة. لا يزال هذا الإسهال الملعون. حينئذ نهض من على الحصيرة ، يلتقط من الأرض عصاه وطربوشه وخرج وهو يهرول. ما إن رأى أبو شاوالى جاد يخرج حتى انطلق فى إثره من دون انتظار.

صاح :

– توقف، يا جاد أفندى، أود أن أحدثك.

توقف جاد، مندهشا، لكن اندهاشه كان لفترة وجيزة، لأنه كان لديه شيء آخر ليفعله.

– مساء الخير يا معلم، بالفعل ليس لدى وقت. أنا متعجل. فليكن ذلك فى وقت لاحق.

– أود أن أخبرك بأمور خطرة، تنهد أبو شاوالى مهموما.

– فليكن، أستمع لك ، لكني أخبرك أنني في عجلة من أمرى.

هما الآن على الطريق. من بعيد تلمع مصابيح الإنارة الحكومية بشكل واضح. على اليسار، طريق السكة الحديد، وفي الأمام تماما المدينة بأنوارها العديدة الجذابة والضارة.

يسير جاد وهو متجهم على نحو عظيم. إنه رجل في الخمسين من عمره، يرتدي بدلة من الصوف بنية اللون، مجعدة تماما ولا يخلعها مطلقا. استدار ناحية أبوشاوالي وأراد أن يوضح له وضعه، لكن الآلام تعاوده فاضطر أن يسير بخطى حثيثة. بعد فترة ، سأله:

– أنت ذاهب إلى المراحيض، يا معلم؟

أجاب أبو شاوالى :

– لا، أصطحبك فقط. ولكن بهذه المناسبة، قل لي، ألا يمكنك أن تقضى حاجتك مثل كل الناس، بالقرب من الكوخ؟

– ماذا أقول لك، يا سيدى. إنها قصة طويلة. لكني لا أستطيع فعل ذلك في الهواء الطلق.

- آه! فهمت. ربما لديك تخوف من أن يرى أحد مؤخرتك.

لم يرد جاد. هذه المزحة السوقية أثارت اشمئزازه وحث الخطى أكثر، بنية التخلص من المعلم. الحقيقة أنه لا يزال يحتفظ بميوله الفطرية كبرجوازي قديم ، مشبعا بتحيزات مسبقة. يلتزم بأخلاقيات الإنسان المثقف. بالنسبة لمثقف مثله ، قضاء حاجته في الخلاء يعادل خيانة للعقل.

طرح أبوشاوالى الموضوع الذي يحفظه فى قلبه.

- أتيت، يا جاد أفندى، لأحدثك عن خطر يهدد عالم الفقراء.

- أى خطر يا معلم؟

- خطر الفانتازيا.

يسود صمت، أثناءه يحاول جاد الهروب من قبضة المعلم. فى الحقيقة، هذه البيئة المجبر على الحياة فيها تصيبه بالرعب. يشعر باشمئزاز فطرى تجاه كل هذا العالم الواقعى والبائس. يفضل أن يرفه عن نفسه بأوضاع خيالية. مجال الفانتازيا شديد التنوع . يفكر فى هذه الدجاجة ذات الريش الذهبى وفى عيون المرأة الشهوانية، التى اختفت بشكل مفاجئ . هناك فى الحياة أشياء خيالية وجاد يحب تلك الأشياء. ومع ذلك يلتفت نحو أبوشاوالى ويسأل باهتمام:

- ماذا قلت، يا سيدى؟

- قلت، يا جاد أفندى، أن، بالنسبة لنا، الفانتازيا خطر. نحن بحاجة لشيء آخر.

- وماذا نحتاج إذن، يا سيدى؟

نحتاج للواقعية، قالها بحدة أبو شاوالى.

كلمة الواقعية هذه تشل كل ملكات جاد. لم يعرف بماذا يرد. وتساءل عما إذا كان من الأفضل أن يُحدث المعلم عن هذه الدجاجة ذات العيون

المغناطيسية ، التي حاولت أن تغريه كمومس. في الحقيقة لم يزل لا يفهم ما يريده المعلم. ولماذا هذا الحوار العبثى؟ حاول الهروب بأن يسرع فى مشيته، لكن أبو شاوالى أمسكه من ذراعه.

– لقد ألقيت فيما بيننا البذرة المشئومة للفانتازيا، استنكر أبوشاوالى. والآن ماذا ستفعل؟

– الفانتازيا شىء رائع، يا سيدى.

– ستصبح مؤذية لنا.

هذا المثقف المحبط يجهل الفقر الحقيقى؛ الفقر العبثى والمستديم الذى يمسك بالبشر منذ ولادتهم. حتى فقره أيضا فنتازيا عابرة وليس حتميا. بل هو من كان يريده حيث سمح لنفسه أن يذهب إليه. يستطيع التخلص منه كشىء نرميه وننساه. لكنهم، لا يستطيعون. لا بد من مسيرة بطيئة للزمن لتجهيز الانفجار المروع الذى سيخلصهم.

– قل لى، يا جاد أفندى، هل ستفتح مدرسة؟ يجب أن أعرف.

– مدرسة ماذا، يا سيدى؟

بالفعل لم يفهم أى شىء من كل هذا . لايزال مستمرا فى إظهار تجهمه المرعب.

– مدرسة للمتسولين، يا جاد أفندى. ألا تريد أن تضع نظريتك الرائعة موضع التطبيق؟

– من أخبرك ذلك، يا سيدى ؟ ليس لدى نية فتح مدرسة. بشرفى، لا أفهم أى شىء من كل ما تقوله هذا.

أوضح أبو شاوالى :

– منذ بضعة أيام، حدثتنا عن علم ما يسمى علم النفس. فى مقهى الباشا، ويوجد شهود. حدثتنا كذلك عن طريقة جديدة فى طلب الإحسان. طريقة خيالية تماما. أتتذكر ذلك؟

– آه! نعم، أتذكر ذلك، قال جاد. إنها فكرة كانت قد مرت برأسى. ألا تجدها رائعة؟

– أجدها وحشية.

– ولماذا ذلك؟

لأنها تنال من كرامتنا نحن الفقراء. أتريد أن تجعلنا كالبهلوانات؟ لا نريد التنكر فى هيئة البهلوانات حتى نحصل على حق الحياة. ما يمنحنا إياه الناس، يجب أن نحصل عليه بوسائل لائقة وواقعية. أتريد أن تجعلهم يعتقدون أننا سعداء؟ يجب أن يظهر أولادنا كما هم في الواقع، متسخين وملوثين ويتسكعون فى الشوارع ككائنات حية لوامة. يجب أن يخافنا الناس ويشعروا من حولهم بتصاعد الرائحة المثيرة للغثيان نتيجة فقرنا الهائل.

– اعتقدت، أن شيئا ما من البهجة كان سيسهل بشكل كبير الأمور.

– لا نريد خدمات من مبدأ البهجة. البهجة يجب أن تهلك. نريد أن نكون شعبا واقعيا، شعبا يعانى، ومن ثم فالجروح واضحة وملموسة. فهمت، يا جاد أفندى؟ هذا ما كنت أود أن أخبرك به.

تردد جاد للحظة، ثم قال.

– ولكن التقدم يتطلب تعديلات في كل المجالات، يا سيدي. فقط كنت أود محاولة التجريب.

– التسول لا يخضع لتعديلات. يجب أن يظل كما هو أو يختفي كلية من على وجه الأرض.

بقيا فترة صامتين. من حولهم هناك الحياة تمر؛ الحياة التي فوق الأحلام والانتقام وحيث لا يمكن أن يقف أى شيء. يتأمل جاد الطريق أمامه ويقيس بنظره المسافة التي بقيت ليسيرها قبل أن يصل للمراحيض العمومية. يريد أن يجري، لكن لايزال أبو شاوالي يمسك به من ذراعه. تنبح كلاب بالقرب من كوخ مهجور. يجري الرجلان الآن على الطريق. قطار مضيء يمر على السكة الحديد محدثا صوتا جهنميا.

يقتربان من المدينة. تصير المصابيح أكثر عددا وأكثر سطوعا. الحضارة تعطى نتائج جيدة هكذا، بالأنوار التى تتوفر حولها لتعمى الناس.

تنهد أبو شاوالى :

– لا أعرف ما يدخره لنا المستقبل.

– المستقبل، فى نهاية هذا الطريق، فى هذا المبنى الصغير الذى تراه هناك.

ينظر أبوشاوالى لآخر الطريق. ما يراه لم يكن مكانا مميزا بشكل محدد حتى يأوى المستقبل.

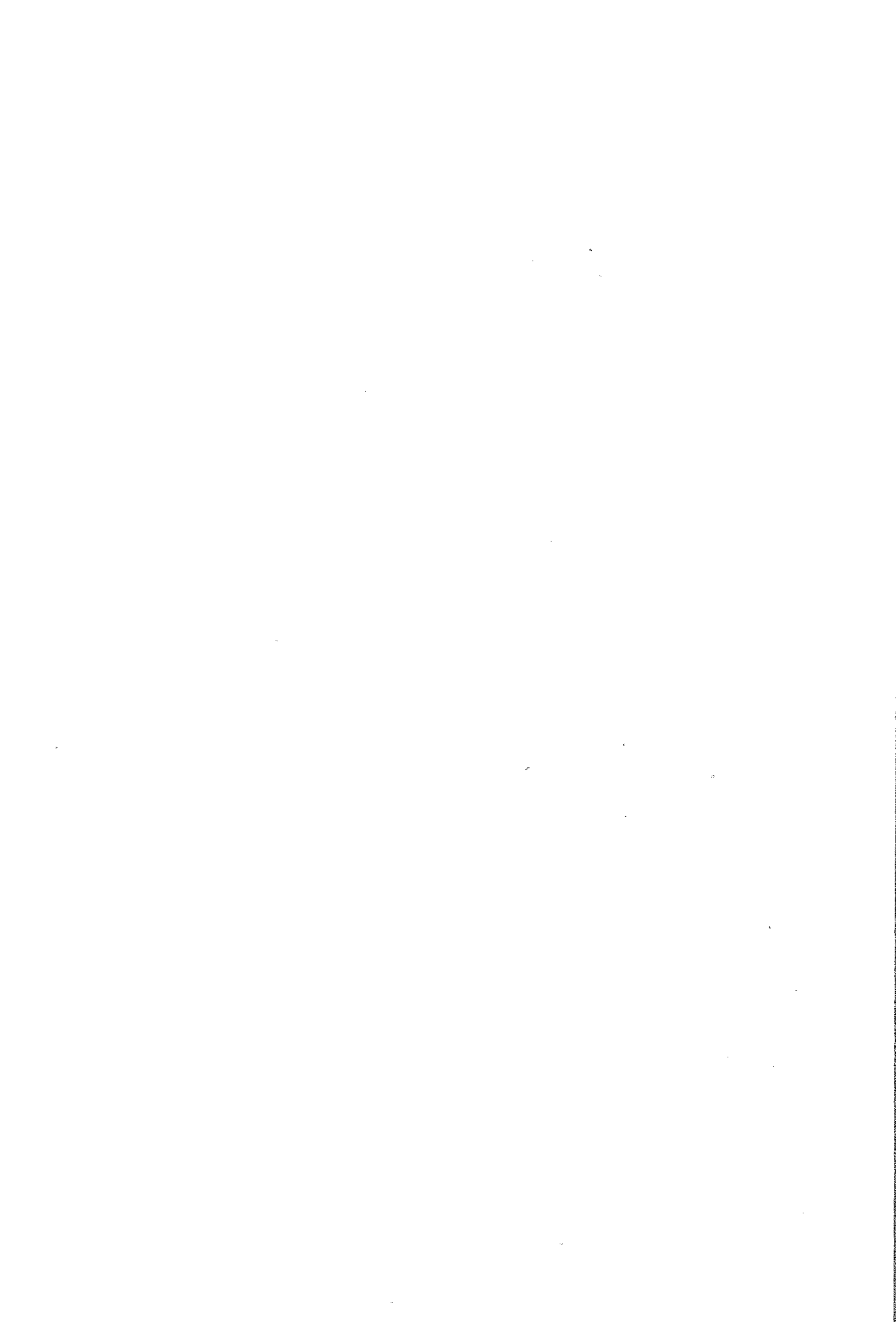
قال مستغرباً :

– لكنها المراحيض العمومية.

– حقا، يا سيدى. المستقبل فى المراحيض العمومية ، على الأقل الآن.

لم يعد يستطيع تمالك نفسه. جرى مباشرة أمامه، نحو المستقبل.

بقى أبوشاوالي بمفرده تماما فى وسط الطريق. ينظر إلى السماء المظلمة، ثم ينظر أمامه. لكن أمامه هناك المدينة الشرهة والمجرمة. ويرى المستقبل مسجلا على شكل بقع دموية فى وسط هذه المدينة.



الجياع لا يحلمون إلاّ بالعيش

كان ضوء القمر يعطى انطباعا بنور فريد ، أتى هناك متعمدا ليباغت خزى البشر.

كانوا بشرا كثيرين ، والأرض صغيرة جدا ! وكل منهم يبحث عن مكان ما يصبح فيه بمفرده، حيث يستطيع الاختباء.

بعضهم دخلوا أكواخهم الخشبية الكريهة وأغلقوا على أنفسهم على أمل أن تأتى ليلة أخرى، ليلية بالفعل غير شفافة ومظلمة حيث لا يرى أى شخص جاره.

والآخرون الذين لا يعرفون أين يذهبون ، لأنهم شديدو الفقر وليس لديهم حتى أكواخ خشبية ، ماتوا من خزيهم.

ولم يعد متبقيا إلا بعض الناس ، بعض الأشباح التى لا تزال تود اللعب مع الحياة، أن تتجاوزها بكل ما فيها من قسوة ووهم .

فى الشارع وبالضبط أمام منزل حميدو بك، رجل نادر القيمة نظرا لأنه يمتلك - بمفرده فقط ومن دون مساعدة من أحد - ثلاثة منازل فى نفس الحى. (ليس للانتقاص منه ، لكن الناس تزعم أنه سرقها) فأبوالنوم، سائق الحنطور الذى عرفه في شبابه، يحكى بشأنه الكثير من الحكايات القذرة والساذجة ، فمن بين حكايات أخرى قصة يقول إن حميدو بك كان قد تاجر فترة في تهريب المخدرات. لكن كل الناس اليوم تقريًبا تتاجر فى تهريب المخدرات. إذن تبقى هذه التفصيلة تافهة وبلا أهمية.

فى البداية مر شيخ أعمى يجره طفل عار، بل عار تماما لم يفعل شيئا لكونه كذلك. متسول وابن متسول . ابتلعهم الشارع تدريجيا، ببطء، وباشمئزاز.

ثم مرت امرأة متزوجة متعجلة جداً، لكن لم يعرف أحد لماذا.

ثم عربة حنطور داخلها رجلان ، رجلان نحيفان وصامتان.

ثم بعض العينات غير واضحة المعالم من البشرية القذرة، بلا لون ولا ملامح، لا يمكن وصفها. ثم عاد الشارع لما كان عليه.

وحينئذ الشاب قدرى ، طالب الحقوق، ظهر. عارى الرأس ، بلا سترة ، ويمسك بزمام عنزته ليزا التى كانت تشبه كلبا سلوقيا كسيحا. فكل يوم – فى التاسعة مساء – يأتي الشاب قدرى يعس تحت نافذة الصغيرة ستوتة ، ابنة حميدو بك. كان الطالب يسير فى الحى على أنه مجنون تقريبا. والده أول من أطلق هذا الخبر.

فى البداية يروح ويجىء الشاب قدرى كشخص ينزه عنزته بسلامة نية ولا يفكر فى شىء آخر. وفي بعض الأحيان يرفع عينيه وينظر تجاه النافذة على أمل أن يرى الفتاة تظهر، ثم يعاود السير من جديد.كان كل ذلك بكل بساطة من دون أدنى مجاهرة واضحة. فكان واثقا بأن حيلته لا يلحظها أى شخص.

فى الواقع، جولة الطالب الشاب تحت نافذة محبوبته لم تبق غير ملحوظة تماما. فثمة شخص رائع للغاية ، شخص من النخبة ، يتميز بجبهته العريضة ذات العبقرية المجهولة وعينيه الشاحبتين – مؤشر على مزاجه النارى – كان يهتم بذلك الأمر بطريقة مكثفة. هذا الشخص (ممثل سابق يدعى سيد كرم) كان يشغل حجرة في الطابق الثالث من منزل حميدو بك ومن نافذته التى تطل على الشارع كان يراقب رواح وغدو الطالب، فى البداية بحيادية ودود، وبعد ذلك بعصبية واضحة. فالمشهد العجيب لعاشق ينزه عنزته تحت نافذة محبوبته كان يثير سخطه ؛ ليس لجانبه العبثى

والشاذ، لكن بالضبط لمقدار الأصالة الموجودة فيه. ومن دون أن يريد الاعتراف لنفسه بذلك، يحسد الطالب على بعض المواقف التى تجعل منه منافسا مجيدا فى ميدان الحياة الفريدة والمدهشة. فسيد كرم يعتقد أن جمال الحياة المتفردة يتمثل فى نصيبه الخاص من هذا العالم والذى قد آل إليه منذ ميلاده. لم يستطع تحمل أن يقدم آخَر متسعا من الوجود الغريب لاسيما فى الحي نفسه. لقد بدا له أن هذا الطالب الشاب ينفذ بذلك جريمة شنعاء، النوع الوحيد من الجريمة الذى ليس لأي كائن- وفقا له - الحق فى ارتكابه. فأن تقتل إنسانا فى حياته الحيوية والعضوية ، ليكن ! فذلك الأمر، كان يتصوره. إلا أنه قد وضعه موضع الخيانة من خلال مفهوم أن إنسانا ما يصنع حياة ، ثم عبر تنويعات غير ملائمة وسخيفة ، تُقلد هذه الحياة ، فذلك الأمر، يدينه سيد كرم بشراسة. لأنه قد عانى منه كثيرا. لقد كان يشعر أن آخر يتنفس بدلا منه ، بينما ينظر له وهو يفعل ذلك من دون أن يتحرك.

فمع كل أمر غريب جديد للطالب ، كان سيد كرم يشعر أنه يتضاءل في حياته المطلقة. شيء ما بداخله يتناقص ببطء، وعلى نحو لا نهائي.

واقفا فى نافذته (منسحبا للخلف قليلا حتى لا يُرى) تابع بتوجس تطورات هذا الثنائي الغريب، المشكل من الفتى قدرى والعنزة ليزا. لكن ما أبقاه بشكل خاص فى النافذة وكان يمنعه من التسليم بأنها مشكلة شخصية جدا وأنها تستدعى فى هذه اللحظة كل معاناته، الأمل فى أن يلحظ ربما هفوة ما فى تصرفات هذا المنافس المتوحش. فارتكابه خطأ فى التكتيك ، شبه خطأ في العرض، ربما كان فيهما عزاء لكرامته. لكن على عكس ما توقع، الطالب يتصرف بطريقة وقور للغاية، طبيعية تماما ومن دون أدنى أثر للتعصب. والعنزة ليزا هي الأخري تبدو واعية بدورها وتتبع

بهدوء سيدها فى جولته الليلية المثيرة للفضول. لقد اعتادت ذلك. فلا شيء يمكن أن يقال بخصوص وضع ليزا في هذا المجال." العنزة كانت أكثر ذكاء منه"، هكذا يعتقد سيد كرم. لقد بحث لهما عن لحن نشاز، جملة موسيقية مشوهة أو مجرد ذوق ردىء. فذلك - وربما بمهارة أكثر - ما كان سيفعله هو نفسه؛ فهى طريقته في العمل عندما ينطلق فى الميدان العجائبى. "سرق حياتى ! هذا الأبله سرق حياتى . لماذا هذه العنزة ؟! العنزة الملعونة ! ويدعوها ليزا ! اسم غريب؛ اسم لامرأة." لكنه سرعان ما سيحتقر لعبة هذا الطفل المراهق. "فعندما كنت فى عمره ، قمت بأعاجيب كانت تجعل نساء الحى يلدن قبل الميعاد. وهذا الطفل المراهق يود أن يعلمني شيئا ما. "حينئذ، وحتى يهرب من هذا الشاب المجرم، الذي يريد سرقة حياته، نظر للسماء وأبدى إعجابه بروعة القمر. وفى نفس اللحظة، فكر فى طفولته البعيدة والمتقلبة.

فى تلك الفترة، كان يقيم مع أبويه في بدروم منزل فى حى السيدة زينب. منزل حزين حقا، نصف مهدم حيث النساء ، شرسات مقتحمات للأخطار، يتعاملن مع شعب من الأطفال المتروكين لغرائزهم أسفل الزقاق. لقد دفعته فظاظة هذه الحياة للقيام بأعمال انتقامية صبيانية. فعبر المنور المفتوح مباشرة على الزقاق ، كان يبول على أقدام المارة الكسالى والمتخلفين عن الركب.

كان أبوه يعمل في طلاء المنازل. وكل مساء، عندما يعود من الورشة، كان يحضر معه الصفائح التي تخلط فيها الألوان. كان سيد كرم يقشط قيعانها من أجل استخدامه الشخصى. هكذا أصبح لديه مخزون من ألوان عديدة كان يستخدمها في أغراض مؤذية. فعلى سبيل المثال، كان يذهب ليلا مع زملائه ، ليدهنوا بطريقة مضحكة الدكاكين المجاورة . مما أوجد حالات

انتحار حقيقية بين التجار الساخطين الذين لم ينتهوا إلى حل في رؤية دكاكينهم المحترمة تحاكي التفتح الغريب لإحدى الزهور الفردوسية، التي تتغير ألوانها كل يوم. كذلك بعض التصرفات الصبيانية التي لم يستشعر فيها ابتكاره الشخصي. فسيد كرم كان يحلم بحدث مدوٍ تنكشف من خلاله شخصيته الداخلية فجأة.

الفكرة العبقرية واتته ذات مساء لم يكن يستطيع فيه النوم . فلقد خرج إلى الزقاق وهو عاقد العزم بشكل واضح تمامًا على أن يقوم بشيء ما مأساوي للغاية، شيء ما مروع ؛ ولقد انتظر الإلهام ، جالسا القرفصاء على الأرض ، مرفوع النظر للسماء . لقد ظل على هذا الوضع المثير للشفقة فترة طويلة كمتسول ينتظر للأبد، على الرغم من اللامبالاة العامة، لم يود الشك فى الكرم الإنسانى.

كان ذلك خلال ليلة دافئة ومضيئة كهذه الليلة. ليلة صافية بشكل عجيب ولم يكن بوسع المرء أن يلمسها بيديه. فقط تلجون إليها، تغوصون فيها ثم تخطف أبصاركم بضوئها. على اتساع السماء كانت النجوم تتلألأ كزهور بيضاء وساكنة. والقمر مكتمل وصاف يشبه ملكة متجردة من ملكوت الجسد. لقد كان سيد كرم يرتعش من ملامسة هذا القمر الذى كان يذكره باستدارة مؤخرة أنثوية. نعم، مظهر القمر هذا ، الخليع كقطعة من جسم عار ، يستدعى بداخله انتظاراً غرامياً طويلاً. وفى هذه الفترة لابد أن نقول: إن الشيخ رمضان، صاحب فرن العيش فى شارع الأشراف، كان لديه زوجة شديدة الملاحة راسخة الجسم وناعمة البشرة، وتُدعى «حمرا». وكان سيد كرم يحلم منذ فترة بمضاجعة هذه المخلوقة الرائعة، بأشكال كانت قد حددتها مسبقا رغبته ، لكنها بعيدة المنال إلى حد كبير. فالشيخ رمضان كان يظهر تجاه زوجته غيرة مجنونة، من دون تمييز؛ غيرة مغلقة على كل

نبذبة من العذوبة ، فظة على نحو متفرد. حتى إن كل وسائل التقرب من حمرا أثبتت عدم قابلية التنفيذ وسيد كرم خائر القوى في وضعه البائس ، لعن القدر الذي وهبه رغبة يصعب إشباعها كذلك.

بينما كانت الفكرة تنبت بداخلة ، بدت هائلة أكثر مما كان يتمنى. لقد انتصب واقفا سيد كرم، وسار مباشرة تجاه منزل رمضان. وقبل أن يصل إليه بقليل ، جري بقوة حتى يبدو عليه القلق، النهجان، كشخص يعلن عن خبر سئ. كان لا يزال يتذكر أنه، بالضبط في هذه اللحظة، خرج رجلان من زقاق مجاور وشرعا يتشاجران بصوت عالٍ. سمع سيد كرم أحدهما- الأصغر- يقول بلهجة واثقة : " بنتك حمقاء، يا حاج عمر ؛ والله ! إنها حمقاء ." والآخر - على الأرجح حماه - أجابه : " كان يجب عليك أن تتزوج وزيرة ، بما أنك تحب الذكاء كثيرا ، وهذا صنف لوطي ." ثم اختفيا في الليل الرحيب ، تلقفهما ضوء القمر . لا بد أن الساعة الآن تقترب من العاشرة. ولا بد أن الشيخ رمضان قد نام في هدوء ، بعد أن خرب بمناوراته العفنة الجسم الرائع للزوجة الشابة. فالتعاسة الأكيدة لهذه المخلوقة المسكينة قد جعلت سيد كرم لا يتردد لحظة؛ طرق بكلتا يديه، وبكل قوته، على الباب. وصاح بعدة أمور، لكنها ليست مبهمة تماما، على العكس كانت تمتلئ بتلميحات عن فرن العيش الذي اشتعلت فيه النار وضرورة أن يكون هناك لإنقاذه على وجه السرعة . لم يكن الشيخ رمضان في حاجة إلى إيضاحات كثيرة. لقد فهم بسرعة أن المقصود فرنه ، ومن دون أن يسأل عن تفاصيل أخرى، انطلق ليطفئه. حينئذ توجه سيد كرم نحو حجرة حمرا، ذات الجسم الراسخ والبشرة الناعمة ، وضاجعها. لا نعرف كيف، لكنه ضاجعها.

بقى أن نقول الأمر الأكثر غرابة فى هذه الحكاية - فسيد كرم لم يقنع بمضاجعة حمرا - فقط - تلك الليلة . فلمرات عديدة ولعدة شهور يبدأ من جديد نفس الحيلة المضحكة - وفى كل مرة يستسلم الشيخ رمضان. لقد حصلت روح سيد كرم الشيطانية على معقوليتها من داخله. لقد وصل به الأمر لحال من (الرُهاب) حتى إن الليالى التى لم يأت فيها سيد كرم ليقول له الخبر المعروف، كان يقضيها بلا نوم، فى حالة من الانتظار المرعب. وفى بعض الأحيان كان سيد كرم، وهو يجرى بهيئته المفزوعة، يجده على الباب، يستعد للرحيل، ومن دون أن يقول له أى شىء. فليس عليه إلا أن يَظهر فقط ، حتى يفهم الآخر من تلقاء نفسه ويذهب ليطفئ الفرن.

حكاية غريبة. كان القمر رائعا. استمتع سيد كرم للغاية بهذه الذكرى البعيدة . بدت له حياته عظيمة وسامية، مثقلة بمهمات البشر غير المكتملة. سار عدة خطوات فى الحجرة، ثم عاد من جديد للنافذة. كانت قطع الأثاث نادرة في هذه الحجرة. التحفة الوحيدة والرئيسة (فوتيه كبير) من الخشب المذهب، من ملحقات المسرح سابقا، كان يُستخدم عرشا لسيد كرم عندما كان يلعب أدوار الملوك المجانين وفاسدى الطباع في المسرحيات الكلاسيكية. بعيدا عن هذا الشاهد على حياته الفنية، لم نرغير كنبة سرير ضيقة مغطاة بفراش أحمر، متسخ وممزق من جميع الجهات. ثم - فى ركن بجوار الحائط - منضدة عالية وعريضة يعلوها زجاج. كذلك عدة كتب متناثرة تقريبا في كل مكان، مختلطة بأواني المطبخ. ضوء القمر، الذي ولج من الخارج، أغرق كل هذه الأشياء فى مائه المندفع وجعلها مربكة ووهمية، كأنها تشكل جزءًا من حلم.

فى الأسفل، فى الشارع، كان الشاب قدرى ينجز بجدية نموذجية مهمته كل ليلة. كان يجهل أنه مراقب. ولذلك لم ينخرط مطلقا فى انحرافات غريبة الأطوار، محكوم عليها بعدم الفائدة في مكان محروم من الجمهور. فعلى

الرغم من معرفته أين يقيم سيد كرم، لم يفكر فيه الطالب. كان يعرفه، لكنه كان يعامله بالكاد. كان يستخف به للغاية. فبالنسبة له، سيد كرم، ممثل، أى كائن حى فى إهاب شخصيات خيالية وبالتالى مادة لكل الحماقات. لم ير فى ذلك أي إسهام شخصي، أي موهبة خاصة. فسيد كرم كان ينتحل شخصية بعض أبطال المسرح، يتوافق وَهَوَسَهُم ، ثم يأتى ليقدم عرضا خارقا أمام مجموعة من الأشخاص غير المحنكين. بينما هو، قدرى، على الرغم من أنه لا يزال صغيرا، لا يبدع إلاّ الجديد وغير المسبوق. أيضا مؤخرا، ألم يظهر عقلية أصيلة بالفعل بشرائه هذه العنزة من أرملة مدرب القرود الذي سحقته سيارة ؟ لقد كان كل الحى مستغربا عندما – للمرة الأولى – خرج من بيته ممسكا بزمام عنزته ليزا التى لاتزال فى فترة الحداد على معلمها السابق. كان أبوه على وشك أن يتبرأ منه للأبد. أما بالنسبة لبعض الأشخاص (الموسرين فى الحى) ، فلقد أبلغوا عنه الشرطة كثورى وينتظرون من يوم لآخر القبض عليه. إلا أن ذلك لم يؤد النتيجة المتوقعة. على الرغم من هذه الحماقة جديدة النوع، لم تبد الحماسة على الصغيرة ستوتة على نحو غير ملائم . لا تزال بعيدة للغاية، بالفعل فالوصول إليها مستحيل.

يقدر الشاب قدرى أنه – لينال حب هذه العذراء الصغيرة ذات الخمسة عشر عاما – يلزم مستوى جديدا من القيم فى المجال العجائبى . كان يتفنن أيضا فى حذف – بشكل متوالٍ – العديد من الصيغ الثقيلة والمبتذلة، التي تعتبر غير لائقة، ليحل محلها أخرى ذات ظلال دقيقة ولاحدود لها. بدا له شراء العنزة خطوة كافية فى هذا الطريق. ولم يفهم لماذا ترفض الصغيرة ستوتة أن ترى فى ذلك إبداعا رائعا لحبه. فى الواقع، كانت الصغيرة ستوتة شديدة الاستمتاع باكتشافات معجبها، لكن، بعقلها الطفولى، لم تكتشف فيها هذا السحر الغريب والصاعق اللذين كان يريدهما الطالب. كانت

تستقبلها ببساطة كحماقات طبيعية وملازمة لعمره. ذلك ما لم يستطع فهمه الشاب قدرى ، لأنه يفتقد أيضا علم النفس.

سار إلى آخر الشارع، ثم عاد أدراجه ، ثم أخذ يداعب العنزة ليزا التي كانت تشعر بالملل بصورة مميتة. مرة أخرى ، نظر لنافذة الفتاة، لكن بلا طائل . لم تظهر قط الصغيرة ستوتة. من الواضح ، أن الصغيرة ستوتة كانت تنام هادئة فى سريرها من دون أن تشك في وجوده. وهكذا إذن ، انتهت هذه الرحلة العاطفية إلى أمر مثير للسخرية وغير منته. لقد أصيبت رومانسية الشاب قدرى بجرح قاتل . للحظة ، ظل شاردا، مستغربا، لا يعرف ما الحل. القمر، محصور بين اثنين من الأسقف، فيزداد بريقه. ثمة سحابة تُلحظ بالكاد ، خفيفة كدخان سيجارة ، كانت تطارده منذ برهة. أخيرا لحقت به، مرت به ملامسة له، ثم تابعت سيرها وهى تذوب كلما ابتعدت. سمع قدرى وقع خطوات خلفه؛ التفت ورأى الرجل ذا النعال البالية الذي أتى لمقابلته.

فى الطابق الأعلى، سيد كرم، الواقف لايزال فى النافذة، بدأ يسأم من مشهد حكم عليه بالمحبط بشكل فظيع فمن البداية، وعند ظهور الطالب وعنزته، كان يتوقع شيئا ما أفضل من رحلة حمقاء وبلا بريق. وها هو ذا الطالب الغبي لا يبدو أنه مستعد لتغيير تكتيكه. منذ ربع ساعة يتخبط على نفس الرصيف من دون رغبة فى أن يتخذ قرارا يفعله. لا يمكن أن ينتهي هذا أبدا." ما الذي يجبره على إيقافه ؟ يستطيع أن يستمر هكذا لمدة عشر سنوات أخرى. وأنا سوف أكون أحمق بما يكفى لمشاهدته يفعل ذلك ؟ لا، كفى مضيعة للوقت." ومع ذلك، لم يغادر النافذة فى التو.

ما كان يجذب انتباهه الآن فى الخارج، ليس الطالب ، ولا العنزة، ولا حتى الرجل ذا النعال البالية المرتبط بهما. فقط الشارع، ببياضه الجيفي، كان يأسر انتباهه. لم يكن قد رآه مطلقا واقعيا بهذا الشكل غير العادى،

ينيره الوجه المُتعَب للقمر المتمهل والوقور. يوجد بداخله نوع من الهيبة المؤلمة. يمكن أن نقول إن الشارع قُتل من فرط المعاناة، وأنه لم يمت إلا بعد احتضار طويل. إنه عجوز – الشارع – وأعرج ، أحناه الزمن تماما. بعض منازله قد تهدمت. فلعدة سنوات، ظلل حياة فقراء الناس. والآن، الناس قد اختاروه ليعبروا عن كل إعيائهم. عاريا تحت النور الهائل للقمر، يشي بكل ما يخفيه الناس داخل أنفسهم : آمالا صغيرة للغاية وأحقادا كبيرة إلى حد بعيد. لم يعد يستطيع إخفاء أى شيء؛ يصرخ بفقره فى كل أرجائه.

استسلم سيد كرم للنزول إلى هذا العالم الواضح والشفاف. ولج الشارع برقة مؤثرة، نفس الرقة التى كان يكنها تجاه مخلوقة المعاناة. هو أيضا – الشارع – كان يبدو له عجائبيا، لكن عجائبيته فقيرة، مستسلمة ومتروكة لنفسها. ذلك هو المنتَج الهادئ للمادة، وليس بدعا من عقل محموم. المادة المشغولة، معجونة ومستهلكة من الناس الذين كانوا قد نفخوا فيها من روحهم. فى كل حجر من أحجار الطريق، كان بإمكاننا تمييز صورهم المنهكة والمذعورة. كان الشارع يعبرعن القلق المزعج للجماعة؛ لم يكن شخصا مختالا يحكى عن نفسه. بل كان إنسانيا وعظيما في محنته، لأنه يصرخ بالألم على نحو وافر. وسيد كرم بلا حول ولا قوة تجاه صرخة الناس هذه من خلال المادة.

بكل تأكيد، كان الشارع يعبرعن ذلك بطريقة مشوشة إلى حدٍ ما، غيرمنطقية تقريبا. حاول سيد كرم أن يعرف من أين أتت هذه الصرخة اليائسة للبشر وما مصدرها الدفين. لكن الرسالة التى كان ينقلها الشارع لم تكن وحيدة المصدر؛ كانت تأتى من أماكن كثيرة فى آن واحد. إنها أنشودة تخرج من عدة حناجر، حشرجة موت ضخمة ومثيرة للشفقة. من كل كوخ سِجْن ترتفع أنة منفردة تلتحم بالأنات الأخرى وتشكل معها هذا الجوالذى لا يُقَدَّر من الحزن الإنسانى. مال سيد كرم نحو الخارج متصفحا

الشارع تحت رغبة أن يُرجع الوعي لبعض المفقودين نتيجة غرق الناس هذا بليغ الأثر. حتى ذلك الحين، كان لايزال ينظر للناس في حالة المشاهِدين، أى حالة كائنات غير مؤذية، محرومين من القوت، ماكينات غير خطرة. لم يَجُل بخاطره فكرة أن المشاهِد من الممكن أن يعانى. مشاهِد : شخص ما يشاهد الآخرين. يعتقد سيد كرم أن العالم مؤلم فقط على المسرح. فمن حوله، لم ير غير أسى عبثى، هموم عديمة الفائدة وبلا قيمة.

مال من الطابق الأعلى على الشارع، كأنه يميل فوق حفرة، اكتشف سيد كرم بانزعاج، وتقريبا رغما عنه، أوجه الواقع المشئوم من فرط الإخلاص. لم يعد واقعا ضخما وأصبح ممكنا بواسطة الحِيَل. هنا، الروح الشيطانية ليس بها أى شيء قسري، ولا أى شىء مشوَّه. إنه – بكل بساطة – الواقع البائس من دون إعداد، الواقع الفاحش كل يوم وكل لحظة. كان سيد كرم يشعر الآن أن قلبه يخفق بمواجهة بعض التفاصيل حيث الشارع فى عُريه الكامل لم يعد يستطيع إخفاءها. أول شيء أثر فيه الصمت الخالد بليغ الأثر الذى يسيطر على كل المنازل المجاورة. يتساءل عما لو كان السكان قد ماتوا مرة واحدة كلهم – هكذا – فى هذه الليلة المضيئة بالقمر، من دون أن يتركوا أثرا، وحملوا معهم عبر الموت أمتعتهم العتيقة، أمراضهم وجوعهم. جعله ذلك يتذكر أن ابن خليفة البنا، طفل في السابعة من عمره، مات، هذا الصباح أيضا، نتيجة الافتقار إلى الدواء. لقد كان البنا منذ فترة طويلة بلا عمل، منذ فترة طويلة جدا لدرجة أنه قد بدأ فى نسيان مهنته. فضلا عن ذلك، كان لديه امرأة بلوى حقيقية؛ تشبه العسكرى، والآن مات ابنه من مرض معقد، لم يستطع أي شخص فهم أي شيء عنه . تذكر سيد كرم بعد أن سمع – منذ الصباح الباكر وبينما كان لايزال نائما– الصيحات المهولة للنائحات.

نظر تجاه منزل البنا، ليرى إذا ما كان هناك ضوء. لكن لا ، لا يوجد أى شيء. ليس هناك أدنى إشارة على الحياة. الناس ماتوا أم اختفوا ؟ شيئا فشيئا، تعرف سيد كرم على - المتناثرة تقريبا في كل مكان - الحياة الخسيسة والواقعية للكائنات. لفترة طويلة، أطال التأمل في المنزل الأصفر، ذلك الذي يمثل زاوية الشارع، وحيث يقيم برسوم الحانوتي، الفقير إلى حد بعيد لدرجة أنه يمكننا القول إنه لن يستطيع أبدا دفع مصاريف دفنه هو شخصيا .هذا الرجل يدفن الآخرين، من دون أمل أن يُدفن هو نفسه ذات يوم. عندما يسير في الشارع، يبدو كمن يحمل نعشا على رأسه. تفوح محادثته برائحة الموت. كان سيد كرم يفكر فيه بعاطفة الشفقة الممزوجة بالفزع. ذكرى هذا الرجل كانت تزعجه كصورة وفاة مضحكة وقريبة جدا. في نفس المنزل، كان يقيم أيضا بركة أفندي، الموظف فى السكك الحديد، حيث ابنته شديدة الدمامة. يعرف سيد كرم أن بسبب دمامتها (علاوة على أن وجهها تغطيه البثور) لم تكن تخرج الفتاة قط من منزلها. يُحكى في الحي أنها تقضي حياتها محبوسة في حجرتها، مع قطة صغيرة سوداء تُسر إليها باعترفات طويلة سقيمة يتخللها انتحاب. يمكن القول أيضا إنها حاولت الانتحار مرات عديدة. لم يعلق مطلقا سيد كرم أهمية على وجود البنت. إلا إنه - في هذه اللحظة - بدا له أنها توجد على نحو مستديم، وأنه قد لا يستطيع طردها من ذاكرته أبدا. تخيلها في حجرتها، سجينة دمامتها، مع قطتها الصغيرة السوداء على ركبتيها، ووجهها بشع تحت الدموع، وقلبها يرتجف من الانفعال. اختفى البيت الأصفر كأنه اختفى بمعجزة؛ الآن وجد سيد كرم نفسه في علاقة مدهشة مع أشياء أخرى وأناس آخرين. كل سكان الشارع ساروا في رتل أمام عينيه، حتى اقتربوا منه تماما. لم يتوقع إتيانهم من تلقاء أنفسهم ؛ كان يستبقهم فى حياتهم حتى بدت له أنه يعرفها كاملة.

لكن ماذا كان دوره، سيد كرم ، فى هذه الدراما المجهولة التى انبثقت من الوحل لتلوثه وتهينه؟ ماذا كان دوره بالضبط؟ ألعوبة صغيرة تجهل الواقع الملموس للحياة : ذلك هو ما يكونه. لقد عاش حتى الآن ليدهش العالم بأمور خارقة متعددة ومتنوعة. أمام اضطراب الشارع هذا، تساءل عما إذا كان حقا هذا العالم البائس يحتاج إلى أن يكون مندهشا. ماذا يهم الناس فى حماقات سيد كرم؟ الناس تطالب أولا بالحياة، الحياة من دون التهديد الأبدى للفقر والجوع.

هنا تكمن إذن كل حياة البشر؟ بقى سيد كرم مذهولا أمام الإخلاص البارد للشارع المبلل من القمر. عاطفة إنسانية جديدة تماما تتسلل إلى داخله ولم يحاول نهائيا صدها.

جذبت حيلة الطالب انتباهه من جديد. رآه يتوقف - بصحبة الرجل ذى النعال البالية، تحت مصباح مطفأٍ (خلال ضوء القمر هذا كل المصابيح تبدو مطفأة) - ويقرأ له ما يشبه الخطاب أخرجه من جيب البنطلون. كان الرجل ذو النعال البالية يسمعه خائفا - فى الوقت نفسه - يبدو أنه لا يستحسن قراءته. فالرجل ذو النعال البالية لم يكن قد تناول العشاء بعد؛ ينتظر من الشاب قدرى أن يدعوه للطعام كما كان يحدث منه أحيانا ويفعلها. إنه شخص شديد الاحترام. دائم الحزن، عندما يُسأل عن سبب حزنه يجيب بشكل لا واقعى : " الخطأ في هذه الأحذية الملعونة. لا تقل ذلك لأحد. إنه سر." هنا توقفت الفانتازيا الوحيدة التى كان يسمح بها الرجل ذو النعال البالية. لم نعرف عنه أى رذيلة أخرى.

لم يعد معجبا سيد كرم؛ يكره - من كل روحه - الطالب ، العنزة ، الرجل ذا النعال البالية. المصباح - المطفأ دائما بسبب القمر- يبدو له أنه يتخلص أكثر من الإخلاص، أكثر من المعنى الملموس للحياة حيث الكائنات

البشرية تناور من حوله. سوف ينسحب إلى داخل غرفته، عندما تصل ريّا . ريّا ، إنها عشيقته.

يفكر فى ما سيقوله لها حالا قبل أن يضاجعها، كما يفعل عادة فى كل مرة تعود فيها السيدة الشابة. تعمل ريا كاشيرة فى مقهى بار كبير فى المدينة الأوروبية. بمجرد أن تتحررمن عملها (الذي تغادره في التاسعة)، تذهب لتحتضن سيد كرم فى حجرته. لم تتأخر قط . شعر سيد كرم أنها فى هذا المساء سوف تخبره بشيء ما جوهرى عن حياة الناس وعن مصيرها .

دخلت ريا الحجرة. ظلت ساكنة بالقرب من الباب، جاحظة العينين، لا تستطيع أن تتحرك خطوة أخرى حيث كانت متعبة جدا . الآن وقد وصلت هنا غادرتها كل قواها فجأة، وبدا أنها ستقع على الأرض وتموت. حاولت أن تتحدث، لكن وخزا مؤلما فى صدرها منعها. حينئذ، أغلقت عينيها وبقيت فى نفس المكان، نحيلة كدرة في ضوء القمر.

امرأة شابة فى الثانية والعشرين من عمرها، جسمها نحيل وهزيل، ترتدي رداءً رماديا وقبعة صغيرة من القش الأسود. وجهها شاحب، بلا مساحيق، يشعر المرء أنها ببساطة امرأة واثقة بنفسها، واثقة بثرائها الأنثوي. لا يوجد في مظهرها أي دلال، أي تصنع. إخلاص بليغ الأثر ينبعث من كل كيانها. سيد كرم، عبر ضوء الحلم الذي يغمر الحجرة، رآها شاحبة ومرتعشة، ثم مال رأسُها قليلا جانبا كما لو كانت سيغشى عليها. لكنه لم يقترب منها؛ ضوء الحلم كان يفصله عنها. إنها هنا كدوي مرعب للشارع. لقد أتت، وكل الشارع، بكل ومضات بؤسه ومعاناته، قد دخل معها الحجرة. كل مأساة الشارع تُقرأ فى وجهها. هذا الوجه في كل مرة يتأمله سيد كرم يُذرف الدموع من عينيه. والآن، إنها هنا بوجهها الأكثر شحوبا من أي وقت

مضى، وبارتجاف كل جسمها الحاد ، لكنه لم يجرؤ أن يقترب منها. أدرك شيئا فشيئا أن كل شيء إنسانى - قد اكتشفه في الشارع - كانت تحمله ريا بداخلها.

انطلق نحوها وأخذها بين ذراعيه.

- مم تتألمين ياحبيبتى؟ دعينى أنظر لوجهك.

وقبّل كل مكان فى وجهها، ضغط صدرها، يريد الدخول فيه، بعيدا، مع كل الناس، فى هذا العالم الواقعى الذى كانت تحمله.

لم تَرُد. كانت متعبة وكل جسمها يرتعش. الحمى. رآها تبكى.

- أتبكين؟ لماذا تبكين؟

فتحت عينيها من جديد ونظرت بدورها لكل وجهه. تنظرله بعينيها الواسعتين المظلمتين حيث تلمع بعض الدموع كما فى حياة البشر التعسة بعض بقع السعادة. شعر أنها فى حالة جيدة وضغط بقوة عليها. ذلك هدأها بعض الشىء. الوخز المؤلم فى صدرها ذهب بعيدا كأنه تلاشى.

- سأل ثانية :

- لماذا تبكين؟

- لأنك هنا.

- أنت شاحبة جدا، يا حبيبتى.

- كنت خائفة ! كنت بالفعل خائفة ، أتعلم؟

- خائفة؟ مم إذن؟

- فى ليلة كهذه، نخاف من كل شىء، كنت خائفة ألا أجدك. كنت أشعر أن نور القمر هذا سينتزعك منى. أنت تشبه إلى حد بعيد هذه الليلة الفانتازية. كنت خائفة من أن تذهب معها للأبد. وها أنا أجدك.

- تجدينى! وهل لمست فىّ تغيرا ؟

- لا ، لا أعرف لو أنك تغيرت. فقط أعرف أنك هنا وأننى وجدتك.

هدأت الآن. لطيفة وعذبة، تتحدث بصوتها كفتاة صغيرة رقيقة شهوانية. الصوت - من أعماق جسمها- الذى لا يخطئ الحقيقة. إنها امرأة تحب بكل كيانها.

- تعالى تمددى على الكنبة.

حملها وهو يضمها نحوه وأرقدها على الكنبة . استسلمت له وبعد ذلك نامت من دون أن تقول شيئا. الآن، تشعر بسلام داخلى بسبب ما سيأتى : المداعبات. استسلمت كليا، تركت السراج لجميع وعود جسمها . كانت بالنسبة له شديدة البساطة وشديدة العمق. حينئذ ، بدأ يجردها من ملابسها بتمهل سقيم إلى حد ما كأنه يخشى أن يؤلمها وبسبب فكرة انبثقت داخله : ألا يضاجعها هذا المساء. يعلم أن رغبته فيها تمثل هذا الجانب الوديع من الحياة، حيث تختفي كل عذابات الحياة، كل حماقات العقل تموت مدحورة عبر زخم المتعة القاسى. لكنه يعرف أيضا أن بالنسبة لها كل متعة تمثل خطوة تقربها نحو الموت. كانت واهية تماما وكانت تمنح نفسها دوما بالكامل. كانت تحمل عبر حبها هذا الشوق الذى كان يبدو له - في كل مرة يضاجعها - أنها تدمر نفسها خلال هذا الحب كأنها فى حالة موت لا ينضب، وأنها تحاول أن تدمره معها.

فى الخارج، القمر والشارع الغارق تحت نور القمر. الشاب قدرى، طالب الحقوق، ترك فجأة الرجل ذا النعال البالية من دون أن ينظر مرة أخيرة على

نافذة الصغيرة ستوتة، رحل مباشرة إلى منزله. لو أن سيد كرم استطاع أن يراه في هذه اللحظة، بلا شك سيعتقد أن الشاب ذاهب ليجهز حركة ما خارقة وذات طبيعة مقلقة . لكنه على العكس تماما. لأنه – بمجرد دخوله حجرته – جلس الشاب قدرى على منضدة المذاكرة، وفتح أول كتاب وقعت عليه يده وبدأ يذاكر بمثابرة ما أبداها حتى ذلك الحين. هذا التغير المفاجئ فى موقف الشاب لا بد أنه عاد فى جزء كبير منه لحوار الرجل ذى النعال البالية، الذى قد أحدث فيه تأثيرا عميقا وحاسما. فالرجل ذو النعال البالية، الذى – بكل وضوح – حاول انتزاعه من جولته الليلية ليقوده إلى مطعم قريب وجَعْله يدعوه للطعام، أبدى مقاومة عنيدة تماما لأسراره العاطفية. لقد كان بالفعل غير مشجع . فمنظر نعاله البالية – بصورة غير معقولة – قد أضفى على كل حديث عن الحب واحتمالية مقابلة المحبوب – كآبة الأشياء المحكوم عليها بالفشل الأكيد مقدما. لم يحدث من قبل أن شعر الشاب قدري بعدم فائدة انتظاره بمثل هذا الاطمئنان المسلم به. فجأة بدا له ضوء القمر شنيعا، وشنيعة أيضا هذه اللامبالاة من الصغيرة ستوتة بصدده. لذلك قرر عدم الاستمرار فى الانتظار وأن يرجع لمنزله فى الحال.

مشى الرجل ذو النعال البالية طويلا فى تلك الليلة وظهر فى عدة أماكن من المدينة. فأبو النوم، سائق الحنطر، الذى – بسبب كثرة تنقلاته – كان يُعتبر عالما كبيرا فى مسألة الأخبار، حكي أنه رآه حوالى الثانية صباحا فى المناطق المحيطة بحى الأزبكية. الرجل ذو النعال البالية – على ما يبدو – توقف بالقرب من المبولة العمومية، بصحبة صغيرة جامعة لأعقاب السجائر، كان يحاول استمالتها. لكن هذه حكايات نابعة من عقلية سائق الحنطور.

الآن، سعلت ريا حتى فقدت النفس. وذلك الأمر جعله يتألم. كان يشعر بالألم كما لو كان صدره هو الذى يمزقه السعال. ظل فى سجال مع رغبته لها فى الجزء السفلى من الجسم، لايزال مترددا فى أن يجامعها.

سألت :

– ألا تحبنى هذه الليلة؟

قال :

– من الأفضل أن تستريحى، أنت منهكة جدا، يا حبيبتى.

– لا أستريح أبدا من حبك، فعندما أكون هناك، فى عملى، أفكر فيك طوال الوقت، أتعرف ذلك؟

– نعم، أعرف.

– أشعر بك دائما فى داخلى. في كل مكان أكون فيه، أشعر بك فى داخلى. وأنت مستمر بالاستمتاع بى. حينئذ، يظهر لى كل شىء فى الدنيا أكثر جمالا. ما كنت لأستطيع الحياة إذا لم أشعر بك فى داخلى. أتفهم، يا حبيبى؟

لم يَرُد؛ كان يفكر فى أمر آخر. يفكر فى هذا الشارع الغارق تحت نور القمر.

قال :

– ابن البنا مات .

أغلقت عينيها. شعرت من جديد بالوخز المؤلم في صدرها. تعرف أنها لم يعد لديها الكثير من الوقت لتعيشه، لكنها– الآن حيث توجد– تحتاج بشكل خاص للعناق. هكذا تقاوم الموت بجسم مفعم بالرغبات. بدا لها أن الموت لا يمكنه الوصول إليها، بقدر ما كان جسمها يقشعر من الشهوة. وذلك الذى

اعترفت به لسيد كرم الآن كان حقيقيا : فطوال الوقت الذي كانت تقضيه في العمل، لم تكن تفكر إلا فيه. كان لديها شعور دائم باحتفاظها به بداخلها، وذلك هو ما كان يفصلها عن الموت. تجريى فى الشارع لتلتقيه بأسرع ما يمكن. عادة يضاجعها فى الحال بمجرد دخولها الحجرة. فهي دائمة العري تحت ردائها الرمادى. إنه على أية حال كان قطعة الملابس الوحيدة التى لديها. كان الاثنان يتعايشان بنقود راتبها الهزيل. لكنها لم تعان على الإطلاق من هذا الفقر؛ لم تكن تعى سوى ثراء وحيد ، ثراء جسمها العاشق والهش.

لا يزال صامتا. وفى الخارج، هناك القمر والشارع العارى تحت ضوء القمر، وكل مآسى العالم. كان يفكر فى أشياء مثيرة وواقعية.

قالت :

– إننى أيضا، سوف أموت عما قريب ، وسوف تبقى وحيدا . كثيرا ما أفكر فى ذلك. من سيهتم بك عندما أموت؟

– لن تموتى، سوف ترين ، سوف أكون قادرا على إبقائك على قيد الحياة.

– فقط أطلب منك أن تحبنى .

من جديد، نظر إلى وجهها. كانت شاحبة بشكل بشع.

قال :

–لا أعرف لماذا، لا أستطيع أن أنظر إلى وجهك من دون أن تغرورق عيناي بالدموع. اسمعى، يا ريا، لا أعرف ماذا حدث لى هذه الليلة.

– احك لى .

– رأيت الشـــارع، يا ريا. رأيت الناس الذين يسكنون هذا الشـــارع. جميعهم بؤساء.

– أعرف ذلك منذ فترة طويلة.

– أود أن أقترب منهم. لقد ظللت وقتا طويلا بعيدا عنهم.

– هناك النافذة، و ضوء القمر الذى يخترق النافذة. وهناك على نحو خاص وجه ريا.

فى المنزل الأصفر، ذلك الذى يمثل زاوية الشارع، استيقظ برسوم الحانوتى منتفضا ونظر حوله فزعا. رأى أن جدران كوخه المصابة بالجذام قد كساها نور ساطع جعلها شفافة كأنها يمكن اجتيازها. فى البداية اعتقد أنه الفجر وأنه يجب عليه أن ينهض بسرعة و يبدأ يوما آخر من الكدح ناكر الجميل. فلابد أن يُدفن ابن البنا الساعة الثامنة. اعتقد برسوم أن الوقت قد حان لتجهيز النعش. لكن– بعد عدة لحظات – أدرك أن الليل لايزال وأن الضوء الغامض الذي ينسال عبر منور كوخه كان نور البدر. عاود نومه وهو يفكر، بسعادة سوداوية، إن ابن البنا لن يكون ثقيلا فى حمله.

كان سيد كرم يفكر فى كل الغرائب التى امتلأت بها حياته، حيث بدت له حياته فارغة من المعنى. فالحقيقة الإنسانية الوحيدة التى لمسها بقلبه وعقله هي هذه المرأة الممدة هناك بالقرب منه على الكنبة. خارج هذه المرأة، كل وجوده لم يكن إلا خدعة طويلة. خدعة له وخدعة للآخرين. فقط بدت له الساعات الماضية – بالقرب من جسم هذه المرأة المريضة – جديرة بمصيره. وجه ريا هو الحقيقة الجوهرية الوحيدة فى حياته. فبه وبه فقط كان قد اخترق كرب البشر الهائل. تذكر المرة الأولى التى رأى فيها وجهها. كان فى هذا المقهى البار الموجود فى المدينة الأوروبية حيث تعمل المرأة الشابة.

ولم يكن يعـرف لماذا، في هذه اللحظة اغرورقت عـيناه بالدمـوع، ولا لماذا أحس باحتياج عميق للإخلاص.

منذ أن أصبحت عشيقته، عاشا معا. أثناء وجودها في العمل، يمضى يومه محبوسا في حجرته يحلم بمسرحيات ذات حبكة غير معقولة . فمنذ ما يقرب من عامين لم يصعد على المسرح. غادر كل شيء يوم أن أراد مدير المسرح الوحيد في المدينة أن يُلحق به - كشريك - فنانةً باسم لا يحتمل . وهذا الاسم لم يكن يروق لسيد كرم، بكل بساطة. حينئذ رحل بانتظار أوقات أفضل. في تلك الفترة، كان وحيدا، وبؤسه على قدر أحلامه. لكن مجيء ريا كان قد غير كل شيء؛ فالسيدة الشابة تعطيه تقريبا كل النقود التي تحصل عليها. وهو سمح لها بالإقامة معه، مبتهجا بهذه البطالة الضرورية جدا لظهور فانتازيته المثيرة للشفقة. كان يود تثوير العالم بأفكار غير عادية؛ أفكار نابعة من داخل خياله المعذب، لكنها لم تحو أي شيء إنساني حتى تلج قلوب البشر. إنه يجهل أن الأفكار غير العادية ليست الأفكار التي تنشأ من الأنانية البربرية للكائنات ، لكن بالأحرى من التضحيات غير المحدودة.

الآن فقط أدرك ذلك. لم يعد يجرؤ على النظر إلى وجه هذه المرأة التي ضحت بصحتها من أجل مساعدته. كيف قبل ذلك ؟ أحس نفس الشعور الحالي، عندما انكشف له الكرب الداخلي للشارع. إنه إحساس الخزي والاشمئزاز تجاه كل حياته الماضية.

- اسمعي، يا ريا، لن تعاودي الذهاب للعمل. أنت مريضة للغاية. يجب معالجتك، أتفهمين؟

– وكيف سنعيش، إذا لم أذهب للعمل؟

– سوف أعمل بنفسى .

نظرت له ، مندهشة ، كأنه يعترف لها بجريمة مروعة . فلم تنتظر منه غير الحب. كانت على استعداد أن تموت شريطة أن يبقى دائما نفس الرجل المعانق والرقيق. ويتحدث عن العمل ! اعتقدت – بالفعل – أنه – بلا شك – شديد التعاسة ليقول شيئا كهذا.

– سوف أبحث عن عمل، أى شىء؛ سوف أجد. بهذا الشكل سوف ترتاحين وتعالجين. افهمينى. ذلك ضرورى لى تماما الآن كى أعيش.

– رجل مثلك لا يمكنه أن يفقد نفسه هكذا، هناك دائما هذه النافذة الملعونة، وفيما وراء النافذة، يوجد هذا الشارع كندم.

– لم أعد أطمح إلا فى أن أكون إنسانا فقيرا بين الآخرين.

– لديك الكثير من الأمور لتفعلها – أمور عظيمة.

– العالم لا يحتاج لأمور عظيمة. البشر جوعى يا ريا؛ فالجياع لا يحلمون إلا بالعيش. كل شىء آخر حماقة. مثلا – قال بعد لحظة – الرجل ذو النعال البالية، أنا متأكد أنه لم يأكل هذه الليلة...

– لمحته الآن برفقة الشاب قدرى.

حينئذ تذكر الشاب قدرى – عاشق الصغيرة ستوتة البائس إلى حد بعيد – وتساءل عما صار إليه. هل رأى فى النهاية محبوبته ، أم لا يزال يدور فى المكان نفسه برفقة العنزة ليزا والرجل ذى النعال البالية ؟ أراد سيد كرم أن ينهض ويذهب حتى يرى ما يدور تقريبا فى الشارع.

الشارع خالٍ . لم ير إلا المصباح الفقير الذى كان يحاول إظهار القليل من الحياة رغما عن نور القمر الصاعق . كان يشبه إنسانا ، شخصا وضيعا يسحقه الترف وسلطة القوة المستبدة التى لم يكن يستطيع عمل أى شيء إزاءها. فى دراما الشارع هذه، يجسد القمر القلة الموسرة من هذا العالم، وتحت سطوته ماتت آلاف المصابيح الفقيرة ، الشبيهة بكل المحرومين من كل الأجناس ومن كل الشعوب، التى تنفجر من الفقر والجوع على امتداد الأرض الواسعة. " كل المشكلة هنا، كما اعتقد سيد كرم. مات ابن البنا نتيجة الافتقار للأدوية؛ لأنه كان فقيرا. إنها حقيقة أولية، لكنها هذا المساء لها ثمن لأنها للمرة الأولى تدخل أيضا إلى قلبى بشكل هائل. لذلك يجب أن أعتبرها إلهاما . فمن الآن ، سوف يكون لحبي معني ولحياتى سبب. الحياة ستعنى بالنسبة لى: الحرب. الحرب بداية من الآن ودائما ضد القوى البربرية التى تجعل أطفال الشعب يسيرون حفاة فى برك المياه؛ وتجعل رجال هذا الشعب يتسولون فى الشارع، أو يقبلون عمل الرقيق الذى لا يُؤَمن لهم حتى عيش كل يوم. ملعونة الأحلام الحمقاء التي تُسْكِن حياتى بالأشباح. فالواقع الاجتماعى فقط سيلهم من الآن كل أفعالى. كما أريد ألا يصبح حبى هذه المرأة التى ضحت بصحتها من أجلى غير التعبير عن هذا الألم المحسوس على نحو عميق . " ترك النافذة وعاد ليجلس بالقرب من المرأة الشابة. لا تزال ممدة فى المكان نفسه، ساخنة وعارية . لا تقول شيئا، تنتظر – فقط – أن تكون معشوقة. تعرف أنه – بعد عدة أحاديث – سينتهى الأمر بمضاجعتها.

فى الطابق الأول من المنزل الأصفر، بنت بركة أفندي – موظف السكك الحديدية – ممدة على الحصيرة المجدولة من القش التى تزين أرضية الحجرة. عبثا، تحاول أن تنام؛ عبثا، تحاول أن تنسى دمامة وجهها. فلم يأت أي حلم لينتزعها من همها المتواصل. حينئذ، تفكر في الموت وهي تبكي. بالقرب منها، القطة الصغيرة تدرك ألم سيدتها. تأخذها الفتاة آنئذٍ على ركبتيها وتشرع في أن تحكي لها حكايات غير مترابطة وبلا اتساق. إنها حكايات تلعب فيها دائما دورالأميرة المحبوبة والجميلة ، التي تتجمل من أجل احتفالات خالدة.

فيما بعد بقليل، نامت وحلمت بحلم باهر، لم تنس نهائيا أدنى ملابساته.

لا يزال سيد كرم يفكر في ابن البنا.

– غدا، برسوم الحانوتى، يجب أن يدفن ابن البنا وبالتأكيد لن يتقاضى أي أجر عن هذه المهمة. بالفعل، تَرَفُّع هذا الرجل فيه شيء ما من السمو، أليس كذلك يا ريا؟

– كم أنت رقيق حيال البشر هذا المساء، وكم أنت مهموم بمصيرهم وكم تحبهم، يا حبيبى.

– أحبك أكثر من كل العالم.

– لا، لا تقل ذلك. إذا أحببتهم كثيرا – كل الفقراء المتألمين والمضطهدين– فسوف تحبنى أكثر.

– لا يزال لدى الكثير لأعلمه عنهم. سوف تساعديننى.

– لديك أشياء كثيرة تفعلها، أقول لك. الكثير من الأمور العظيمة. وأعلم أنك ستفعلها.

– كيف غيرت هذه الليلة كل شيء.

– لم تُغير روحك. فقط هذه الأمور العظيمة التى كنت تود تحقيقها لتُدهش الناس، ستحققها لتساعد الناس ولتقودهم نحو حياة أفضل.

قال على نحو حزين :

– تعرفين كل ذلك قبلى ومع ذلك لم تحدثيني عن ذلك من قبل.

– كل ذلك بداخلك. كل ذلك منقوش في داخل روحك ووعيك. كل ذلك يفور بداخلك كرغبة وحشية، تنتظر لحظة الانفجار.ألا تفهم ؟ إذن انظر لجسمى العارى، انظر يدى التى ترتعش، انظر وجهى وقل لي لماذا تبكى ؟

صاح :

– توقفى، توقفى أعرف أنكِ الآن. الجسم المعجون بالشعب، الدم المريض للشعب، ووجهك المحفور بالمعاناة ليس إلا الانعكاس الساحق لبؤس الشعب. مسكينة يا ريا.

– لماذا مسكينة ؟ هل لأنني يجب أن أموت؟ لكني لن أموت أبدا بالنسبة لك، سوف أظل دائما حاضرة. ففى كل مرة تقابل فى الطريق طفلا رث الثياب وبمجرد رؤيته سينتفض قلبك بالتمرد، سأكون بالقرب منك. فالطفل الذي يبكى من الجوع والبرد، سيكون أنا. الرجل المسحوق بالهموم والذى لا يعرف أين يذهب سيكون أنا. المرأة المهملة والعلاقات الغرامية المنكسرة بسبب الفلوس، وكل الشهوات غير المشبعة ورغبات الطعام أو حتى مجرد التنفس – كل ذلك – سيكون أيضا أنا، دائما أنا.

مال سيد كرم على جسم المرأة حيث يعيش كل العالم البائس والمتألم، وبنظره وفمه ويديه ارتاد أعماق هذا الجسم – طويلا – حتى آخر نفس، حتى الفجر.

أشرق الفجر على حى بُعث من جديد لم يعد يقبل الحياة كما كانت، لكنه يريد أن يُسيطر عليها، أن يجعلها أكثر جسارة ,أكثر جمالا.

سلسلة كتاب الهلال تقدم:

نجيب محفوظ

الرواية .. الذاكرة والنسيان

د. ممدوح فراج النابي

يصدر ٥ ديسمبر ٢٠١٥

سلسلة روايات الهلال تقدم:

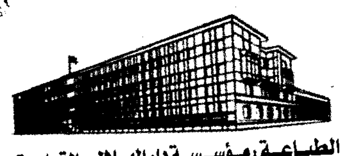
حوّادم

بهيجة مصري إدلبي

تصدر ١٥ ديسمبر ٢٠١٥

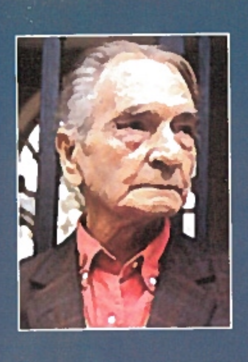
أحدث إصدارات روايات الهلال عامى ٢٠١٤-٢٠١٥

اسم الرواية	المؤلف	الشهر	السنة	رقم العدد
ضابط احتياط	محمود عوض عبدالعال	نوفمبر	٢٠١٤	٧٨٩
الحائط الأخير	سميرعبدالفتاح	ديسمبر	٢٠١٤	٧٩٠
مثل ترنيمة	بيرومبا دافام سرى دهاران	يناير	٢٠١٥	٧٩١
لا تنس الهدهد	فؤاد حجازى	فبراير	٢٠١٥	٧٩٢
البومة العمياء	صادق هدايت	مارس	٢٠١٥	٧٩٣
امرأة الريح	صفاء عبدالمنعم	أبريل	٢٠١٥	٧٩٤
إنى وضعتها أنثى	سعيدة تاقى	مايو	٢٠١٥	٧٩٥
سكر مر	محمود عوض عبدالعال	يونيو	٢٠١٥	٧٩٦
فى عشق جيفارا	آناميناندس	يوليو	٢٠١٥	٧٩٧
العربة الرمادية	بشرى أبو شرار	أغسطس	٢٠١٥	٧٩٨
رمضان المسيحى	عادل سعد	سبتمبر	٢٠١٥	٧٩٩
سرابيوم	محمود عرفات	أكتوبر	٢٠١٥	٨٠٠



الطباعة : مؤسسة دار الهلال - القاهرة

نظر شاكتور لابنه باندهاش مشفقا. لم يقل شيئا. داخل عقله المعذب بلا توقف، لم يعد هناك مكان لألم جديد. ببساطة، كان يشعر بالانسحاق من حركة ابنه؛ لأنه كان يدرك الآن أن داخل هذا الطفل لحمه ودمه. كان يتشكل بؤسا واعيا وواقعيا لم يكن لاحظه حتى ذلك الحين، ومن الآن فصاعدا سوف يكون مرتبطا ببؤسه. إلى متى؟ سيكبر الطفل وسينمو معه بؤسه، حتى اليوم الذي يضعف فيه بدوره. هل يستطيع إنسان ما أن يتحمل (بمفرده فقط) بؤسه؟ . سينجب طفلا يتقاسم معه العبء. العزاء الوحيد للفقير ألا يترك عند موته طفلا مسرفا. فالعار الذي يتركه لذريته لا ينضب.



ألبير قصيري: ولد في القاهرة ١٩١٣ واستقر في فرنسا منذ ١٩٤٥ وكان نموذجا لفلسفة الكسل والاستغناء. وكتب أعماله بالفرنسية، ولقب بفولتير النيل، ونال جوائز منها جائزة الأكاديمية الفرنسية للفرانكوفونية ١٩٩٠ عن ست روايات كتبها عن الفقراء والمهمشين في القاهرة. وتحولت بعضها إلى أفلام سينمائية مصرية.



المترجم:

لطفي السيد: تخرج في قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب. يعمل مدير تحرير سلسة (آفاق عالمية). صدرت ترجمته لرواية فيليب كلوديل (تقرير بروديك)، وتحت الطبع كتاب (بارت بقلم بارت) تأليف رولان بارت.